

دار نآراس للطباعة والنشر



السلسلة الثقافية

\*

**صاحب الإمتياز: شوكت شيخ يزدين**

**رئيس التحرير: بدران أحمد حبیب**

\*\*\*

**حریر**

العنوان: دار نآراس للطباعة والنشر - شارع گولان - اربیل - كُردستان العراق

أليساندرو باريكو

## حزير

الترجمة عن الإيطالية:

نزار آغري

اسم الكتاب: حزير

المؤلف: أليساندرو باريكو

الترجمة عن الإيطالية: نزار آغري

من منشورات ناراس رقم: ٥٢٥

الإخراج الفني والغلاف: آراس أكرم

الإشراف على الطبع: عبدالرحمن الحاج محمود

الطبعة الأولى، اربيل - ٢٠٠٧

رقم الإيداع في المكتبة العامة في اربيل: ٢٠٠٦/٦٥٤

رغم أن والده كان رسم له مستقبلاً باهراً في السلك العسكري، فإن هرفيه جونكور خلص إلى كسب عيشه من طريق مهنة غير عادية شاء جانب ساخر من القدر أن يجعلها تمتاز بلمح أنثوي غامض.

صار هرفيه جونكور يبيع ويشتري دود القز لكسب الرزق.

العام ١٨٦١ كان فلوبيير يكتب سالامبو. وكان المصباح الكهربائي مجرد تخمين. أبراهام لنكولن، خلف المحيط، كان يخوض حرباً لم يكن مقدراً له أن يرى نهايتها.

هرفيه جونكور في الثانية والثلاثين.

يبيع ويشتري.

دود القز.

لنكن دقيقين. كان هرفيه جونكور يبيع ويشتري دود القز حين كان أمر كونها ديداناً يكمن في بقائها بيوضاً صغيرة، صفراء أو سنجابية اللون، جامدة بل ميتة في الظاهر.

كان في وسع كف يد أن يحوي آلافاً منها.

"يمكن أن تقول أن ثروة تتجمع في يديك".

في بداية شهر آيار كانت البيوض تفقس مانحةً الحرية ليرقات تشق طريقها بشكل مسعور وهي تقضم أوراق التوت ثم تحبس نفسها من جديد في شرنقة تلبث فيها أسبوعين قبل أن تتحرر بشكل نهائي تاركة وراءها ثروة من الحرير في هيئة آلاف الأمتار من الخيط الخام ومن النقود في هيئة مبلغ محترم من الفرنكات الفرنسية. هذا على افتراض أن كل شيء يمضي وفقاً لما هو مخطط وأن المرء يقيم، كما هو شأن هرفيه جونكور، في مكان ما من الجنوب الفرنسي.

لافي ديو هو اسم البلدة التي يقطنها هرفيه جونكور.

هيلين اسم زوجته.

لم يكن لهما أولاد.

لتجنب الأوبئة التي كانت تغزو المفاص الأوربية بشكل متزايد قرر هرفيه جونكور الذهاب بعيداً في البر وراء البحر المتوسط، لجلب البيوض من سوريا ومصر. هاهنا يقوم جانب المغامرة في عمله. يترتب عليه أن يسافر ١٦٠٠ ميلاً في البحر و ٨٠٠ ميلاً في البر.

سيكون عليه أن يختار البيوض ويفاوض في السعر ويشتري حصته. من ثم سيقفل راجعاً فيسافر ٨٠٠ ميلاً في البر و ١٦٠٠ ميلاً في البحر ويعود إلى لافي ديو، عادةً في يوم الأحد الأول من شهر نيسان، وعادةً أيضاً في الوقت المضبوط للقداس الكبير. سيستغل الأسبوعين لتحضير البيوض وبيعها. في ما يبقى من السنة، يرتاح.

- "كيف هي إفريقيا"، يسألونه.  
- "مرهقة".

كان يملك داراً كبيرة خارج المدينة ومختبراً صغيراً في المركز مقابل البيت المهجور التابع لجان برييك.

كان جان برييك وعد ذات يوم أن يكف عن الكلام. وقد وفي بوعده. تركته زوجته وابنتاه. مات. لم يرغب أحد في شراء بيته. هذا هو السبب في بقاءه مهجوراً.

من بيع وشراء دود القز كان هرفيه جونكور يكسب كل عام ما يكفيه لتزويد نفسه وزوجته بكماليات مريحة تعتبر في أذهان سكان الريف بذخاً. كان يتمتع بما يملك ولم يكن يكثرث لإحتمال أن يملك ثروة حقيقية وهو احتمال لم يكن بعيداً عن الواقع. وفي جانب ذلك، فهو كان واحداً من أولئك الذين يحبون أن يراقبوا حياتهم الخاصة معتبرين الطموح لإنخراط فعلي فيها أمراً غير ملائم.

كان من السهل ملاحظة أن ناساً كهؤلاء يراقبون قدرهم بمثل ما يراقب معظم الناس يوماً ما طراً.

وإذا ما سئل يوماً فإن هرفيه جونكور سيجيب أن حياته كانت ستستمر على هذا المنوال إلى الأبد. كان وباء الببرين، المرض الطاعني في دود القز والذي كان يجعل البيوض المنتجة في المفاقس الأوربية عديمة النفع، قد انتشر في بداية الستينيات حتى وصل افريقيا بل إن بعضهم يقول أنه بلغ الهند. عاد هرفيه جونكور من رحلته المعتادة في ١٨٦١ محملاً بكمية كبيرة من البيوض التي تبين، بعد شهرين، أنها مصابة بالمرض. اعتبر ذلك العام بداية النهاية بالنسبة للافي ديو وبلدات كثيرة أخرى تعتمد في ازدهارها على إنتاج الحرير.

بدا العلم عاجزاً عن تعيين سبب الوباء. وبدا العالم كله حتى أقصى أطرافه وكأنه وقع أسير هذه اللعنة الغامضة.

"العالم كله تقريباً" قال بالدابيو بهدوء:

"تقريباً، وسكب مقدار أصبعين من الماء في شراب البرنود".

بالدابيو كان الرجل الذي قدم إلى البلدة منذ عشرين عاماً واتجه من فوره إلى مكتب رئيس البلدية وانسل من دون جلبية ووضع على طاولته وشاحاً حريراً بلون غروب الشمس وسأله:

- هل تعرف ما هذا؟

- سلعة نسائية.

- غلط. سلعة رجالية: نقود.

طرده رئيس البلدية. بنى بالدابيو طاحونة بجانب النهر ومفقساً قرب الغابة لتربية الديدان وعلى مفترق من الطريق إلى فيفيه شيد كنيسة مكرّسة للقديسة آغنيس. شغل عنده أكثر من دزينة من المياومين وجلب من ايطاليا جهازاً غامضاً من الخشب، كله دواليب وعتلات، ولم ينيس بكلمة واحدة لسبعة أشهر متتالية. بعد ذلك رجع إلى رئيس البلدية ووضع على طاولته حفنة مكومة من الأوراق النقدية بقيمة ثلاثة آلاف فرنك.

- هل تعرف ما هذا؟

- نقود.

- غلط. هذا برهان على أنك غبي.

جمع نقوده ووضعها في حقيبته وتهيأ للخروج.

أوقفه رئيس البلدية.

- ما الذي يفترض بي أن أعمله بحق الشيطان.

كان بالدابيو أيضاً هو من أحدث قبل ثمان سنوات تغييراً في حياة هرفيه جونكور. جرى ذلك في تلك الأيام التي بدأت فيها الأوبئة تضرب المحصول الأوربي لبيوض دود القز. دون أن يستولي عليه الفزع درس بالدابيو الوضع بهدوء وتوصل إلى الإستنتاج بأنه لا يمكن حل المسألة بل مراوغتها. كانت لديه فكرة وكل ما كان يحتاج إليه هو رجل مناسب لتطبيقها. وقد أدرك أنه وجد ذلك الرجل عندما لمح هرفيه جونكور يمرّ بالقرب من مقهى فردان نشيطاً في بزّته العسكرية ومعتداً بنفسه - جندي في إجازة.

كان يبلغ الرابعة والعشرين من العمر آنذاك. دعاه بالدابيو إلى منزله. فتح أمامه أطلساً مليئاً بأسماء غريبة وقال له:  
- تهاني، يا ولدي. أخيراً عثرت على مهنة جادة.  
أصغى هرفيه جونكور إلى كلمة بليغة عن دود القز، البيوض، الأهرامات، الرحلات البحرية، ثم قال:

- لا أستطيع.
- لماذا.
- تنتهي إجازتي بعد يومين. عليّ أن أعود إلى باريس.
- مهنة عسكرية؟
- نعم. هذا ما أراده والدي.

- لا شيء. ستصير رئيس بلدية لبلدة غنية.  
بعد خمس سنوات كانت هناك سبع مطاحن في لافي ديو التي غدت واحدة من المراكز الرئيسية لتربية دود القز وغزل الحرير في أوربا. لم يكن جميعها ملك بالدابيو. كان وجهاء وإقطاعيون آخرون تبعوه في هذه المغامرة التجارية الغريبة.  
وكان بالدابيو أفسى لكل واحد منهم بأسرار المهنة من دون مشقة. وكان فرحه من ذلك أكبر من توفير كيس من النقود.  
التعليم. إفشاء الأسرار. هذه كانت طبيعته.

كان لديه الكثير ليقوله. ولكن ما أخبره بالدايبو حالما انفردا  
كان:

- حدثني عن الدلفين.

- الدلفين؟

- متى رأيتهم؟

- هكذا كان بالدايبو.

- لم يكن أحد يعرف كم كان عمره.

- ليست مشكلة.

- أخذ هرفيه جونكور في الحال إلى والده.

- هل تعلم من يكون هذا الشخص؟ سأل بعد أن دخل مكتب  
الرجل دون استئذان.

- إبني.

- إلق نظرة أخرى.

- استند رئيس البلدية إلى كرسيه الجلدي وتصيب منه العرق.

- إبني هرفيه يعود إلى باريس بعد يومين. مستقبل باهر في  
قواتنا المسلحة بانتظاره بإذن الله والقديسة أغنيس.

- بالضبط. ولكن المشكلة تكمن في أن الله يملك خطة أخرى  
وأن القديسة أغنيس لا تطيق الجنود.

بعد شهر واحد توجه هرفيه جونكور إلى مصر. سافر على متن  
سفينة تدعى عادل. كانت الروائح المنبعثة من الوادي تغزو  
حجرات السفينة. كان هناك رجل انكليزي قال أنه حارب في  
واترلو. في مساء اليوم الثالث لمحووا بريق دلفين على الأفق مثل  
تلويحة غريق. كان المقود الدائري ينعطف نحو ١٦.

رجع بعد شهرين، في يوم الأحد الأول من نيسان، في موعد  
القداس الأكبر.

حاملاً آلاف البيوض الملفوفة في قماش قطني موضوعة في  
قفصين خشبيين كبيرين.

رفع بالدابيو نهاية قصبته وأشار إلى ما وراء أسقف سانت  
أوغست:

- هناك وتمضي إلى الأيام.

قال.

"نحو نهاية العالم".

٨

- العالم كله تقريباً، ردد بالدابيو بهدوء وهو يصب مقدار  
إصبعين من الماء إلى شراب البرنود.

ليلة آب، بعد منتصف الليل. في تلك اللحظة من المعتاد أن  
يكون مطعم فردان قد أغلق منذ هنيهة. كانت الكراسي رفعت  
ووضعت مقلوبة على الطاولات في صفوف منتظمة. وتم تنظيف  
مكتب الإستقبال وكل شيء آخر. لم يبق سوى إطفاء الأضواء  
وإقفال المحل. ولكن فردان كان ينتظر: بالدابيو يتكلم.

مقابله كان هرفيه جونكور جالساً يصغي إليه، صامتاً، بين  
شفتيه سيجارة مطفأة. مثلما كان الأمر قبل ثمان سنوات كان  
يترك الرجل يعيد كتابة قدره بطريقة منظمة. كان صوته شفافاً  
وهادئاً تتخلله رشقات منتظمة من شراب البرنود. لم يتوقف لحظة  
واحدة. آخر شيء قاله كان:

- لا خيار آخر. إذا أردنا البقاء علينا الوصول إلى هناك.

صمت.

فردان. متكئاً على منصة الإستقبال، رفع عينيه نحوهما.  
ركز بالدابيو على اكتشاف رشفة أخرى من البرنود في قعر  
الكأس. وضع هرفيه جونكور سيجارته على طرف الطاولة قبل أن  
يقول:

- هذا المكان، اليابان، أين يقع بالضبط؟

في تلك الأيام كانت اليابان بالفعل في الطرف الآخر من العالم.

كانت جزيرة من الجزر ولتنتهي عام كانت عاشت مقطوعة عن باقي البشرية ودأبت ترفض أي تماس مع القارة وتمنع الأجانب من الدخول إليها. كان الساحل الصيني يقع على بعد مئتي ميل وحسب ولكن مرسوماً إمبراطورياً جعل المسافة أبعد إذ حظر في عموم الجزيرة بناء أية سفينة تحمل أكثر من سارية واحدة.

وفي سلوك يحمل منطقته الخاص لم يكن ثمة قانون يمنع الهجرة ولكن عقوبة الإعدام كانت تنتظر أولئك الذين يخطر لهم العودة. سعى التجار الصينيون والهولنديون والإنكليز مراراً إلى كسر هذه العزلة العيشية ولكنهم لم يفلحوا في شيء ما عدا بناء شبكة هشة ومحفوفة بالأخطار من المهربين. لم يحقق هؤلاء أكثر من أرباح قليلة ومشاكل كثيرة وأسطورة غريبة ينبغي أن توزع في موانئ المساء.

ولكن حيث فشل هؤلاء نجح الأمريكيون وذلك بفضل السلاح وحده. في تموز ١٨٥٣ أبحر القائد الحربي ماتيو، س، بييري إلى خليج يوكوهاما مع اسطول حديث يسير بقوة البخار وأرسل انذاراً إلى اليابانيين "طلب" فيه منهم فتح الجزيرة أمام الأجانب. لم يسبق لليابانيين أن رأوا سفينة تمشي بعكس الريح.

عندما رجع بييري بعد سبعة أشهر ليتلقى الرد على إنذاره أسرعته الحكومة العسكرية في الجزيرة إلى التوقيع على اتفاقية تقضي بفتح ميناءين في شمال البلاد أمام الأجانب وإقامة أولى العلاقات التجارية المحسوبة. "أصبح البحر الذي يحيط بهذه الجزيرة"، قال القائد الحربي بنوع من الوقار، "أصبح اليوم ضحلاً إلى حد بعيد".

كان بالدابيو على علم بهذه التفاصيل جميعها. وفوق كل شيء كان على علم بالأسطورة التي ما برحت تظهر في حكايات الذين يزورون الجزيرة. كان يقال أن الجزيرة تنتج أرقى أنواع الحرير في العالم. لقد دأبوا يصنعون الحرير لألف عام وأكثر حسب طقوس وأسرار بلغت حداً غامضاً من الدقة. وما دار في خلد بالدابيو هو أن الأمر لا يتعلق بأسطورة بل بحقيقة صافية وبسيطة. كان حمل بين أصابعه مرة نقاباً مصنوعاً من خيط الحرير الياباني. كان الأمر أشبهه بالقبض على... لا شيء. وهكذا حين ظهر أن الأمور زاغت بسبب البيرين والبيوض المصابة فكّر على هذا النحو:

"هناك جزيرة مليئة بدود القمز، هي جزيرة لم يفلح أي تاجر صيني أو انكليزي أن يدخلها لمئتي عام. هذه الجزيرة لم يدخلها أي مرض قط".

هو لم يكتف بمجرد التفكير لنفسه. لقد نقل ذلك إلى جميع صنّاع الحرير في لافي ديو حين دعاهم للإجتماع في مقهى فردان. لم يكن أحد منهم سمع باسم اليابان من قبل.

- "هل يفترض بنا أن نعبر العالم لنصل إلى هناك ونشتري البيض، لاسمح الله، من مكان يشنقون فيه الأجانب فور مشاهدتهم لهم؟"

- كانوا يشنقون، صحح بالدابيو القول.

لم يعرفوا مالذي ينبغي أن يفكروا فيه. خطر لأحدهم أن يحتج. - "إذا كان الجميع امتنع عن الذهاب إلى هناك لشراء البيض فلا بد أن ثمة سبب ما".

لا بد أن بالدابيو اغترّ معتبراً أن ما كان ينقص بقية العالم هو بالدابيو آخر ولكنه فضل إعطاء جواب مباشر.

- "لقد أخذ اليابانيون على عاتقهم بيع حريرهم وليس البيض. إنهم يفرضون رقابة صارمة على ذلك. وإذا ما خطر لك أن تغادر الجزيرة وأنت تحمل ولو بيضة واحدة فإنك ترتكب عملاً إجرامياً".

كان جميع صنّاع الحرير في لافي ديو من السادة المحترمين، إلى هذا الحد أو ذاك، ولم يكن ليخطر لأي واحد منهم أن يقوم بعمل يخلّ بالقانون في بلدهم. ولكن فكرة القيسام بذلك في الطرف الآخر من العالم بدت لهم معقولة إلى حد كبير.

العام هو ١٨٦١ كان فلوبيير ينهي سامبولاً وكان المصباح الكهربائي مجرد تخمين. ابراهام لنكولن، خلف المحيط، كان يخوض حرباً لم يكن مقدراً له أن يرى نهايتها. اجتمع صناع الحرير في لافي ديو وجمعوا المبلغ الكبير المطلوب للرحلة وأجمع الجميع على أن من المنطق تسليمه لهرفيه جونكور. عندما طلب منه بالدابيو أن يقبل ذلك ردّ بالسؤال:

- هذا المكان، اليابان، أين يقع؟

- تابع سيرك حتى نهاية العالم.

انطلق في السادس من اكتوبر، وحيداً.

عند بوابة لافي ديو احتضن زوجته هيلين وقال لها ببساطة:

- لا تقلقي لأي شيء.

كانت امرأة طويلة القامة، تتحرك ببطء. كان شعرها أسود طويلاً لم تبال قط برفعه إلى الأعلى. كان صوتها جميلاً للغاية.

انطلق هرفيه جونكور حاملاً ثمانية آلاف فرنك ذهبي وأسماء ثلاثة رجال زوده بها بالدابيو: صيني وهولندي وياباني.

عبر الحدود بالقرب من متيز، اجتاز عرض ورتمبرغ وبافاريا، دخل النمسا، وصل إلى فيينا وبودابست بالقطار، ومن هناك استمر حتى كييف. قطع مسافة ألفي كيلو متر من السهوب الروسية ممتطياً حصاناً. عبر الأورال ودخل سيبيريا وواصل المسير لأربعين يوماً حتى بلغ بحيرة بايكال التي تعرف محلياً بـ "البحر". سار نازلاً على طول مجرى نهر أمور محاذياً الحدود الصينية حتى المحيط، وحين بلغ المحيط توقف في مرفأ سابيرك أحد عشر يوماً إلى أن حملته سفينة مهربين هولنديين إلى رأس ترايا على الساحل الغربي من اليابان. أخذ طرقاتاً فرعية واجتاز مقاطعات ابشيك واورتوياما ونيغاتا سيراً على الأقدام، دخل مقاطعة فوكوشيما ووصل مدينة شيراكاوا وانتقل إلى شرقها. انتظر ليومين رجلاً في ثوب أسود جاء وعصب عينيه وأخذه إلى قرية جبلية قضى الليل فيها وفي اليوم التالي ساوم على ثمن البيض مع رجل لم يتكلم قط وأبقى على وجهه مقنعاً بنقاب حريري أسود. وقت الغروب أخفى البيض في أمتعته، أدار ظهره لليابان وانطلق في رحلة العودة.

كان تجاوز بالكاد البيوت الأخيرة من القرية حين هرع إليه رجل

وأوقفه. قال له شيئاً في نبرة منفعة، قاطعة، ثم رافقه عائداً به بحزم وتهذيب.

لم يكن هرفيه جونكور يتكلم اليابانية ولم يكن قادراً على استيعاب ما يقوله الرجل. وما استوعبه حقاً هو أن هارا كاي كان يريد رؤيته.

١٣

اجتازوا تخشيبية ورقية ودلف هرفيه جونكور إلى الداخل. كان هاراكي جالساً القرفصاء على الأرض في الزاوية القصوى من الغرفة. كان يلبس فستاناً داكناً من دون زينة. العلامة الوحيدة الظاهرة عن سلطته كانت امرأة تجلس بجانبه، صامتة، رأسها في حجره، عيناها مغلقتان، وقد اختفى ذراعها في طيات ثوب أحمر ثقيل انتشر من حولها على الحصيرة الرمادية مثلما ينتشر الوهج. كان يمرر يداً من خلل شعرها بهدوء. كان كما لو يداعب حيواناً رعداً نائماً. عبر هرفيه جونكور الغرفة. انتظر شارة من مضيفه وجلس قبالة. استمر على هذا النحو في صمت، عيونهما مثبتة على بعضهما بعضاً. دخل خادم خلسة ووضع فنجانين من الشاي أمامهما ثم اختفى. وبدأ هاراكي في التكلم، بلغته. كان صوته يحمل نبرة غنائية تبدو مؤثرة بشكل مؤلم. أصغى هرفيه جونكور له. ثبت عينيه على عيني هاراكي ثم حولهما للحظة وحسب على وجه المرأة.

كان وجه فتاة يافعة.

رفع عينيه ثانية.

تنحى هاراكي، رفع أحد الفنجانين، حمله إلى شفتيه، سكت للحظة ثم قال:

- حاول أن تخبرني من أنت.

قال ذلك بالفرنسية ناطقاً بالحروف الصوتية بنبرة مخلص، خشنة.

أمام واحد من أشد رجال اليابان مكرماً، مالك زمام الأمر لكل ما دبره العالم من أجل دفع اليابان إلى الأمام، حاول هرفيه جونكور أن يشرح من هو. روى ذلك بلسانه، متكلماً ببطء، وغير متأكد مما إذا كان في وسع هاراكي أن يستوعب ما يقوله. دفعته الغريزة إلى التخلي عن كل حيطة وروى في كلمات بسيطة الحقيقة كلها.

لم يخترع من مخيلته شيئاً، لم يحذف شيئاً. وضع أمامه التفاصيل الصغيرة والحوادث الحاسمة بالرتابة الثقيلة لشخص يقرأ قائمة أشياء نجت من الحريق. استمع إليه هاراكي دون أن يتبدل أي شيء في ملامحه. ركّز نظرتة على شفتي هرفيه جونكور كما لو كانتا تؤلفان آخر سطور رسالة وداع. كان كل شيء صامتاً وساكناً في الغرفة بحيث أن ما وقع لاحقاً، وهو لم يكن شيئاً يذكر، بدا أمراً جليلاً.

فجأة.

دون أقل حركة

فتحت الفتاة الياقة

عينيهما.

استمر هرفيه جونكور يتحدث ولكنه أنزل عينيه غريباً نحوها وماراه، وهو غارق في الحديث، تمثل في أنه لم تكن ثمة خصلة

شرقية في عينيهما وإنهما كانتا مسمرتين عليه بدقة بالغة: كما لو أن هذا ما دأبتا تفعلانه منذ البداية، من خلل الجفنين المسدلين.

أدار هرفيه جونكور عينيه في اتجاه آخر بقدر ما استطاع من اللامبالاة وحاول أن يواصل سرده دون أن يبدل أدنى نبذة في صوته. وهو لم يتوقف إلا عندما وقعت عيناه على فنجان الشاي أمامه على الأرض. إلتقطه ورفعته إلى شفتيه بإحدى يديه وشرب ببطء. ثم استأنف سرده واضعاً كوب الشاي على الأرض أمامه من جديد.

أراحت رأسها مرة أخرى في حضن هاراكي. بقيت عيناها  
مفتوحتين مثبتتين على عيني هرفيه جونكور.

١٥

فرنسا، رحلات بحرية، رائحة التوت في لافي ديو، القطارات  
البخارية، صوت هيلين. واصل هرفيه جونكور رواية حياته على  
نحو لم يفعله من قبل قط. واصلت الفتاة تحديقها فيه بدقة  
صارمة بحيث اضطر إلى شحن كل كلمة بمعنى استثنائي. بدت  
الغرفة وكأنها إنسحبت إلى الورااء وغرقت في صمت أبدي عندما  
مدت يدها من ثوبها بدفعة غير متوقعة ومررتها على الحصيرة  
أمامها.

لاحظ هرفيه جونكور هذا الغبش الكالغ يعكّر نطاق رؤيته. رأى  
يدها تمر من فوق كوب شاي هاراكي وتواصل سيرها بهدوء لتحط  
بتردد على الكوب الآخر بخفة وتمسك به. لم يكن هاراكي أزاح  
عينيه الجامدتين لحظة عن شفتي هرفيه جونكور.

رفعت الفتاة رأسها بهدوء.

لأول مرة نقلت نظرتها من هرفيه جونكور وثبتتها على الكأس.  
ببطء كبير أدارت الفئجان إلى أن أطبقت شفتيها على الموضع  
الذي كان شرب منه.

أغلقت عينيها وأخذت رشفة.

أبعدت الكأس عن شفتيها.

أعادته إلى مكانه الأولي.

سحبت يدها إلى داخل ثوبها.

- عندما أغادر هذه الجزيرة، حياً، ستحصل على ما تستحقه من الذهب. أعطيك كلمتي.  
لم ينتظر هرفيه جونكور الجواب. وقف. خطا إلى الورا قليلاً ثم إنحنى.  
آخر شيء رآه، قبل مغادرة الغرفة، كان عيناها، مثبتتين عليه، وهي صامتة بالكامل.

تكلم هرفيه جونكور طويلاً. توقف عن الكلام فقط عندما أزاح هاراكي نظره وأوماً برأسه.  
صمت.  
بالفرنسية، وبنبرة تمدّ الحروف الصوتية، نطق هاراكي في صوت صارم وقاس:  
- إذا أردت، سأكون سعيداً لو عدت.  
ابتسم لأول مرة.  
- البيوض التي في حوزتك هي بيوض سمك. لا قيمة لها تقريباً.  
خفض هرفيه جونكور عينيه. لبث فنجان الشاي هناك، أمامه. تناوله وبدأ يديره ويعن النظر فيه كما لو كان يبحث عن شيء ما على حافته الذهبية. عندما وجد ما كان يبحث عنه وضع شفتيه عليه وشرب حتى القطرة الأخير ثم وضع الفنجان أمامه وقال:  
- أعرف.  
قهقه هاراكي فرحاً.  
- ألهذا دفعت بالذهب المزيف؟  
- دفعت ثمن ما اشتريته.  
عاد هاراكي إلى الجدّ ثانية.  
- عندما تغادر هنا ستكون نلت ما تصبو إليه.

بعد ستة أيام استقل هرفيه جونكور سفينة مهرب هولندي في تاكاوكا فأخذته إلى سابريك. من هناك مرّ بمحاذاة الحدود الصينية حتى بحيرة بايكال، قطع أربعة آلاف كيلومتر على الأرض السيبيرية، اجتاز الأورال، عاد إلى كييف وعبر أوروبا كلها بالقطار، من الشرق إلى الغرب، إلى أن بلغ فرنسا بعد رحلة دامت ثلاثة أشهر، في يوم الأحد الأول من شهر نيسان، الوقت المناسب للقداس الكبير، وصل إلى بوابة لافي ديو. توقف، شكر الله، ودخل المدينة مشياً على الأقدام، وعدّ خطواته، التي يمكن لكل واحدة أن تحمل اسماً، وأنه ربما لن ينساها أبداً.

- ماذا تشبه، نهاية العالم هذه؟ سأل بالدابيو.

- غير مرئية.

لزوجته جلب هدية، ثوب حرير، لتواضعها، لم ترتديه قط. لو أنك حملته بين يديك، يبدو كأنك تقبض على لا شيء.

البيوض التي جلبها هرفيه جونكور من اليابان ألصقت بمئات الشرائح في لحاء أشجار التوت وياتت سليمة بالكامل. بدا إنتاج الحرير في المنطقة المحيطة بلافي ديو في تلك السنة استثنائياً في المقدار والنوع. وتقرر فتح مصنعين آخرين للحرير وبنى بالدابيو صومعة بجوار كنيسة القديسة أغنيس. ولسبب غامض فقد اختار أن تكون الصومعة دائرية ولهذا أسند العمل إلى معماري أسباني يدعى خوان بنتيث كان يتمتع بقسط من الشهرة في قصر بلاثا دي توروس.

- لا رمل، بالطبع، في الوسط، بل حديقة، وإذا أمكن وضع رؤوس دلافين بدلاً من رؤوس الثيران على المدخل.

- دلفين، سنيور؟

- السمك، يا بنيتيث، هل تفهمني؟

راجع هرفيه جونكور حساباته عدة مرات واكتشف أنه رجل ثري.

اشترى ثلاثين عقاراً جنوب منزله وكرّس أشهر الصيف لتصميم حديقة تكون صامتة، عزلاء بالكامل لكي يتمشى فيها. في ذهنه تكون الحديقة غير مرئية مثل نهاية العالم. كل صباح يمشي بهدوء حتى يصل فردان فييتسني له سماع الإشاعات المحلية والأقاويل المنشورة في الصحف الآتية من باريس. في المساء

- أنت غير متضايق من أي شيء.

حين اتخذ بالدابيو هذا الرأي انطلق هرفيه جونكور مرة أخرى إلى اليابان في اليوم الأول من تشرين الأول. اجتاز الحدود الفرنسية قرب متز وقطع عرض ورقمبرغ وبافاريا ودخل النمسا ووصل فيينا وبودابست بالقطار ثم واصل رحلته حتى كييف. عبر مسافة ألفي كيلومتر من السهوب الروسية على سهوة حصان واجتاز الأورال ودخل سيبيريا واستمر أربعين يوماً إلى أن بلغ بحيرة بايكال المعروفة محلياً باسم "الشيطان". انحدر مع مجرى نهر أمور محاذياً الحدود الصينية وصولاً إلى المحيط ومع وصوله إلى المحيط توقف في ميناء سابريك أحد عشر يوماً إلى أن أوصلته سفينة تهريب هولندية إلى رأس ترايا على الساحل الغربي من اليابان. سالكاً طرقاً فرعية اجتاز مقاطعات ايشيكاوا، توياما، ونيغاتا مشياً على الأقدام ودخل مقاطعة فوكوشيما ووصل إلى مدينة شيراكاوا ومضى إلى شرقها وانتظر يومين رجلاً باللباس الأسود جاء فعصب عينيه وأخذه إلى قرية هاراكى. عندما استطاع أن يفتح عينيه ثانية وجد نفسه أمام خادمين حملاً أمتعته وأخذه إلى طرف غابة وتركاه هناك بعد أن أشارا له إلى أحد الطرق. انطلق هرفيه جونكور يمشي من خلل الظلال التي كانت تنهض حين تمنع الأشجار من حوله وفوقه نور

سوف يجلس وقتاً طويلاً في مدخل منزله، بالقرب من زوجته هيلين. هي ستقرأ من كتاب، بصوت عال، وسيجعله هذا الأمر سعيداً لأنه يعتقد أن لا صوت في العالم كله أجمل من صوتها. بلغ الثالثة و الثلاثين في ٤ أيلول ١٨٦٢. زوجته كانت كالمطر أمام عينيه، رؤيا سلام.

حلّ هرفيه جونكور ضيفاً على هاراكي لأربعة أيام. كان الأمر شبيهاً بالعيش في بلاط ملك. كانت القرية كلها تعيش من أجل ذلك الرجل. كل نأمة، في أعالي تلك التلال، كانت مكرسة لحمايته ولإدخال السرور إلى نفسه. كانت الحياة دندنة خافتة تسير ببطء مدروس مثل حشرة مهددة في جحرها. كان العالم على بعد مئات السنين.

خصص لهرفيه جونكور بيت خاص وخمسة خدم يرافقونه أينما حل. كان يأكل بمفرده، في ظلال شجرة زاخرة بزهور ملونة لم ير مثيلاً لها من قبل. كان يؤتى له بالشاي مرتين في اليوم في وقار تام.

مساءً يرافقونه إلى الغرفة الأوسع في البيت. كانت ذات أرضية حجرية. وكانت طقوس الحمام سارية هنا. ثلاث نساء من عمر معلوم، غطت وجوههن طبقة من الشمع الأبيض، يصبن الماء عليه وينشفون جسمه بمناشف حريرية دافئة. أيديهن خشنة ولكن لمساتهن خفيفة إلى أبعد الحدود.

في صباح اليوم الثاني رأى هرفيه جونكور رجلاً أبيض يصل إلى القرية. كانت ترافقه عربتان مليئتان بصناديق خشبية كبيرة. كان رجلاً انكليزياً. لم يكن هناك ليشتري. كان هناك ليبيع.

- أسلحة، مسيو، وأنت؟

الشمس. لم يتوقف إلا حين انفتحت الخضرة للحظة مثل نافذة على حافة الطريق. ملح بحيرة على بعد ثلاثين متراً في المنحدر. بجانب البحيرة كان هاراكي جالساً القرفصاء مديراً ظهره، مع امرأة في ثوب برتقالي وقد أرخت شعرها على كتفيه. وفي اللحظة التي رآها هرفيه جونكور تطلعت حولها ببطء لثانية من الزمن، أي بما يكفي لتلتقط نظرتة.

لم تكن ثمة سحنة شرقية في عينيها ووجهها كان وجه فتاة يافعة.

استمر هرفيه جونكور يمشي في الغابة الكثيفة وخرج ليجد نفسه بمحاذاة البحيرة. على بعد خطوات منه كان هاراكي جالساً، بلا حركة، وظهره إليه، لابساً الأسود. بجانبه كان ثمة ثوب برتقالي مرمياً على الأرض وزوج من النعال المصنوعة من القش. اقترب هرفيه جونكور. تموجات دائرية خفيفة سحبت مياه البحيرة إلى الشاطئ كما لو أن أحداً دفعها من مسافة بعيدة.

- صديقي الفرنسي، غمغم هاراكي دون أن يرفع بصره.

قضايا ساعات، جالسين جنباً إلى جنب، يتحدثان، محافظين على هدوءهما. ثم نهض هاراكي وحذا حذوه هرفيه جونكور. قبل الشروع في المشي وبحركة غير محسوسة أسقط فرداً من قفازيه بجانب الثوب البرتقالي الراقد على طرف البحيرة. كان الوقت مساءً حين وصلا إلى القرية.

لم ير هرفه جونكور هاراكي مرة ثانية إلا في صباح اليوم الثالث.

لاحظ أن خدمه الخمسة قد اختفوا دفعة واحدة كما لو بفعل السحر وبعد لحظة أبصره يظهر. هذا الرجل الذي كانت القرية كلها تدور في فلكه كان يسير دوماً في موكب فارغ. كما لو أن قانوناً غير مكتوب قرر أن يُترك وحيداً.

معاً تسلقا سفح الجبل إلى أن وصلا إلى فسحة في الأعلى حيث كانت السماء مزينة بعشرات من الطيور ذات أجنحة زرقاء عظيمة.

- الأهالي يراقبون طيرانها ويتنبأون بالمستقبل.

قال هاراكي.

- عندما كنتُ صبياً أخذني والدي إلى مكان مثل هذا، وضع قوسه في يدي، وطلب مني أن أرمي أحد الطيور. فعلت ذلك. وسقط طائر كبير بجناحين زرقاوين إلى الأرض مثل قطعة حجر. إقرأ طلقه سهمك. قال لي والدي. إذا أردت أن تعرف مستقبلك.

كانت الطيور تطير ببطء، تعلقو وتهبط في السماء، كما لو أنها ترغب في أن تمحي تلك السماء بأجنحتها.

عادا إلى القرية وهما يمشيان في ضوء العصر الغريب الذي كان

- أنا أشتري. دود القز.

تناولا العشاء معاً. كان لدى الانكليزي قصصاً كثيرة ليرويها: إنه يسافر جيئة وذهاباً بين أوروبا واليابان منذ ثمان سنوات. أصغى هرفيه جونكور إليه وفي الأخير وحسب سأله: هل تعرف امرأة، يافعة، أوربية على ما أظن، بيضاء، تعيش هنا؟

استمر الرجل الانكليزي يأكل، وجهه صارم.

- لا توجد نساء بيضاوات في اليابان كلها. لا توجد امرأة بيضاء واحدة في اليابان كلها.

غادر في اليوم التالي، محملاً بالذهب.

في صباح اليوم الأخير ترك هرفيه جونكور البيت وراح يتجول في القرية. صادف رجالاً كانوا ينحنون له أثناء مروره بمحاذاتهم ونساء كن يخفضن عيونهن ويبتسمن له. أدرك أنه اقترب من منزل هاراكي حين لمح قفصاً كبيراً يحتوي على عدد هائل من الطيور من كل نوع. كان مشهداً أخاذاً.

كان هاراكي حدثه كيف أنهم يجلبون له هذه الطيور من كل ركن في العالم. كانت من بينها أنواع تتجاوز قيمتها كل الحرير الذي تنتجه لافي ديو في عام واحد. توقف هرفيه جونكور ليتأمل هذا الثراء الباذخ. تذكر أنه قرأ في أحد الكتب أن الرجال في الشرق إذ يكرمون خليلاتهم لا يعطونهن المجوهرات في العادة. كانوا يعطونهن أجمل الطيور النادرة.

بدا منزل هاراكي غارقاً في بحيرة من الصمت. اقترب هرفيه جونكور منه وتوقف على بعد خطوات من المدخل. لم تكن ثمة أبواب، وعلى ورق الجدران كانت ظلال تظهر وتختفي دون أن تترك صوتاً. لم يكن هناك ما يشبه الحياة. إذا كان لا بد من اسم لكل هذا فهو: المسرح.

توقف هرفيه جونكور وانتظر، دون أن يعرف لماذا. توقف جامداً على بعد خطوات من المنزل. للحظات كاملة استسلم للقدر. كانت الظلال والصمت الأشياء الوحيدة التي يمنحها هذا المشهد الغريب.

له شكل المساء. عندما بلغا بيت هرفيه جونكور تبادلوا التحية. استدار هاراكي وانطلق بخطوات كسولة في طريق المنحدر الذي يسير بمحاذاة النهر. بقي هرفيه جونكور واقفاً على عتبة الباب يراقبه. انتظر حتى ابتعد الآخر مسافة عشرين خطوة وقال:

- متى ستخبرني عن تلك الفتاة؟

استمر هاراكي يمشي بخطوات كسولة لم تكن تظهر تعباً. كان هناك صمت طاغ، فراغ. كما لو أن قانوناً فريداً أُقر، أينما سار الرجل، أن يمضي لوحده في عزلة تامة.

أخيراً استدار هرفيه جونكور واستأنف مشيه وتوجه إلى البيت  
في خطوات سريعة. أحنى رأسه وراقب خطواته لأن هذا كان  
يساعده على عدم التفكير.

٢٣

في ذلك المساء حزم هرفيه جونكور أمتعته. ثم ترك نفسه يؤخذ  
إلى الغرفة الكبيرة ذات الأرضية الحجرية ليؤدي طقوس الحمام.  
اضطجع، أغلق عينيه، فكَرَّ في القفص الكبير، تلك العلاقة  
المجنونة عن الحب. وُضعت قطعة مبللة من القماش على عينيه.  
لم يكن أحد فعل ذلك من قبل. حاول بشكل عفوي أن يزيلها  
ولكن يداً أمسكت بيده ومنعته. لم تكن اليد المسنّة للمرأة  
المسنّة.

شعر هرفيه جونكور بالماء ينساب على جسمه، على رجليه أولاً  
ثم على ذراعيه وصدره. ماء كالزيت. ومن حوله، صمت غريب.  
شعر بخفة نقاب حريري يسقط عليه، ويدا امرأة - امرأة -  
تجففه بالكامل، تداعب جلده: اليدان والنقاب مغزولة من لا  
شيء. لم يتحرك أبداً، حتى حين شعر بأن اليدين تنتقلان من  
كتفيه وتمسدهما مرة، ببطء، ثم تختفيان.

ثم شعر هرفيه جونكور بالنقاب الحريري ينتصب واقفاً ويمضي  
عنه. آخر شيء كان يدُ فتحت يده ووضعت شيئاً في كفه.

انتظر لحظة طويلة، في صمت، دون حركة. ثم رفع القماش  
المبلل عن عينيه ببطء. لم يكن في الغرفة أي ضوء. ومن حوله لم  
يكن ثمة أحد. وقف وأخذ الثوب الذي كان مطوياً على الأرض،  
لفه على كتفيه، غادر الغرفة وعبر البيت إلى أن وقف على

في اليوم التالي، في الصباح الباكر غادر هرفيه جونكور. حمل الآلاف من بيوض دود القز مخفية في أمتعته. بكلام آخر كان يحمل مستقبل لافي ديو. العمل للمئات من الناس، والثروة للعشرات منهم. عندما انعطف في الطريق نحو اليسار وغاب منظر القرية بالكامل خلف كتف الجبل، توقف دون أن يبالي بالرجلين الذي كانا يرافقانه. ترجل ثم تمهل قليلاً على حافة الطريق وقد تركزت عيناه على تلك البيوت التي تتسلق سفح الجبل.

بعد ستة أيام اعتلى هرفيه جونكور متن سفينة مهربين هولنديين في تاكاوكا فأخذته إلى سابريك. ومن هناك سار بمحاذاة الحدود الصينية وصولاً إلى بحيرة البايكال وقطع أربعة آلاف كيلومتر في البر السيبيري واجتاز الأورال ووصل إلى كييف وعبر أوروبا كلها، من الشرق إلى الغرب، بالقطار ووصل إلى فرنسا بعد رحلة دامت ثلاثة أشهر. يوم الأحد الأول من شهر نيسان - وقت القداس الكبير- توقف عند بوابة لافي ديو. رأى زوجته هيلين تركض إليه، شمَّ عطر جلدتها حين عانقها وسمع مخمل صوتها حين سمعها تقول:

- لقد عدت.

بهذوء.

- لقد عدتُ.

حصيرته واستلقى. شرع يحدق في الشعلة الرقيقة التي كانت تتراقص في المصباح. ويحرص كبير أوقف الزمن بقدر ما انتهى. لم يكن شيئاً أن يفتح كفه، آنذاك، ويرى قطعة من الورقة. قطعة صغيرة. بضع إشارات مرسومة تحت بعضها بعضاً. بحبر أسود.

في لافي ديو استمرت الحياة ببساطة محكومة بالنظام والمنهج. ترك هرفيه جونكور الحياة كي تغسله واحد وأربعين يوماً. في اليوم الثاني والأربعين استسلم، سحب جراراً في غرفته وأخرج خريطة اليابان. فتحها وتناول قضاصة الورق التي كان أخفاها في داخلها، قبل عدة أشهر. حفنة من الإشارات مرسومة تحت بعضها بعضاً. بحبر أسود. جلس عند طاولته وحدق في تلك الرسوم وقتاً طويلاً.

وجد بالدابيو في فردان، عند طاولة البلياردو. كان يلعب لوحده على الدوام، ضد نفسه. ألعاب غريبة. كان يسميها لعبة اللاعب السليم ضد اللاعب المعاق.

يقوم بضربة عادية وفي الضربة التالية يستعمل يداً واحدة. "اليوم الذي يفوز فيه المعاق"، يقول، "سوف أغادر هذه البلدة". بقي المعاق يخسر سنين طويلة.

- بالدابيو، أريد أن أجد أحداً هنا يستطيع أن يقرأ اليابانية.

اللاعب المعاق ضرب الكرة من خلال مستدين ثم أعاد تثبيتها.

- إسأل هرفيه جونكور هو يعرف كل شيء.

- لا أستطيع أن أفك حرفاً منها.

- أنت الياباني هنا الآن.

- مع ذلك لا أستطيع أن أفك حرفاً منها.

انحنى اللاعب السليم على العصا وضرب كرةً من ست نقاط.  
- لا يبقى أحد إذن سوى مدام بلانش. إنها تدير محلاً للأقمشة في نيم. فوق المحل هناك مبعي. هي تملك المبعي أيضاً. إنها غنية. وهي يابانية".  
- يابانية؟ كيف جاءت إلى هنا؟  
- لاتسألها ذلك إذا كنت تريد أي خدمة منها. اللعنة. أخطأ اللاعب المعاق في نقر الكرة من أربع عشر نقطة.

أخبر هرفيه جونكور زوجته هيلين أن عليه أن يذهب إلى نيم في رحلة عمل وأنه سيرجع في اليوم نفسه. صعد إلى الطابق الأول، فوق محل القماش. في الشارع رقم ١٢ موسكات سألت عن مدام بلانش. جعلوه ينتظر وقتاً طويلاً. كانت الغرفة مزينة كما لو أن حفلاً أقيم فيها منذ سنوات ولم ينته بعد. كانت الفتيات يافعات وفرنسيات كلهن. كان ثمة عازف بيانو يدندن نغمات بدت وكأنها للحن روسي. كان يستعمل المفتاح الهادئ. في نهاية كل قطعة كان يمرر يده اليمنى في شعره ويتمتم:

- Voila

انتظر هرفيه جونكور عدة ساعات. بعد ذلك أخذوه عبر رواق طويل إلى باب يقف في النهاية. فتح الباب ودخل. كانت مدام بلانش جالسة على كرسي كبير بالقرب من النافذة. كانت ترتدي كيمونو خفيفاً: أبيض بالكامل. في أصابعها كانت وضعت زهور صغيرة ذات لون أزرق غامق كما لو أنها خواتم. شعر أسود لامع، ملامح شرقية. كمال.

- ما الذي يجعلك تعتقد أنك غني إلى درجة تسمح لك بالنوم معي؟

بقي هرفيه جونكور واقفاً أمامها، قبعتة في يده.

- أريد منك خدمة. لا يهم الثمن.

ثم تناول من جيب سترته قصاصة صغيرة مطوية أربع مرات وأعطها إياها.

- أريد أن أعرف ما هو مكتوب فيها.

لم تحرك مدام بلانش ساكناً. انفرجت شفاتها قليلاً. طيف ابتسامة.

- من فضلك، مدام.

لم يكن ثمة سبب يدعوها إلى فعل ذلك. مع هذا تناولت القصاصة، فتحتها، نظرت إليها. رفعت عينيها إلى هرفيه جونكور، ثم أخفضتهما ثانية. ببطء أعادت طي القصاصة.

قال بالدابيو أن الناس كانوا يأتون أحياناً من باريس لممارسة الجنس مع مدام بلانش. وبعد عودتهم إلى العاصمة كانوا يضعون في عروة ملابس السهرة التي يرتدونها زهرة أو إثنين من اللون الأزرق، تلك التي كانت تضعها دائماً في أصابعها مثل الخواتم.

عندما مالت إلى الأمام لتعيدها إليه انفتح ثوبها الكيمونو عن جزء من صدرها. لاحظ هرفيه جونكور أنها لم تكن ترتدي شيئاً تحت الثوب وأن جلدها كان غضاً، أبيض.

- إرجع، وإلا سأموت.

نطقت ذلك بصوت بارد، وهي تحدق في عيني هرفيه جونكور، من دون أن يظهر عليها أدنى تعبير.

- إرجع، وإلا سأموت.

أعاد هرفيه جونكور القصاصه إلى جيب سترته.

- شكراً.

أوماً برأسه، استندار نحو الباب، وكان على وشك أن يضع بضعة أوراق نقدية على الطاولة.

- إنساها.

تردد هرفيه جونكور لحظة.

- لا أقصد النقود. أقصد المرأة. إنساها. لن تموت وأنت تعرف ذلك.

دون أن يستدير وضع هرفيه جونكور النقود على الطاولة، فتح الباب وغادر.

في ذلك الصيف، ولأول مرة في حياته، أخذ هرفيه جونكور زوجته إلى الريفييرا. أقاما لمدة أسبوعين في فندق يقع في نيس أغلب رواده من الأنكليز ويشتهر بالأمسيات الموسيقية التي يقيمها لزيائنه. اقنعت هيلين نفسها بأنهما سينجحان في مكان رائع كهذا في أن يعدداً الطفل الذي ينتظرانه منذ وقت طويل. قررا أن الطفل سيكون صبياً وأن اسمه سيكون فيليب. إستغلا إلى حد ما المناخ الإجتماعي في ذلك المنتجع للتمتع قليلاً، حين انفرادهما في غرفتهما، بأن يسخرنا من الأشخاص الذين إلتقيا بهم. في إحدى الأمسيات قابلا تاجر فرو بولوني أثناء حضورهما لحفل موسيقي. قال البولوني أنه كان في اليابان.

في الليلة التي سبقت رحيلهما شاء هرفيه جونكور أن ينهض قبل حلول الصباح. كان الظلام مازال مخيماً، نهض واقترب من سرير هيلين. عندما فتحت عينيها سمع صوته يقول: سأحبك دائماً.

في بداية شهر أيلول عقد صنّاع الحرير في لافي ديو اجتماعاً لوضع خطة عمل. كانت الحكومة أرسلت إلى نيم عالم نبات شاب لدراسة المرض الذي كان يفتك ببيوض دود القز الفرنسية ويجعلها غير ذي فائدة. كان الشاب يدعى لويس باستور. كان يقال أنه سبق أن حقق إنجازات خارقة. جاءت الأنباء من اليابان تقول بأن حرباً أهلية على وشك الإندلاع تغذيها الجهات التي تعارض فتح البلاد أمام الأجانب. القنصلية الفرنسية في يوكوهاما أرسلت برقيات تنبذ فكرة إقامة روابط تجارية مع الجزيرة في الوقت الراهن. كان يقترح التريث في انتظار أوقات ملائمة أكثر. كان الكثير من وجهاء لافي ديو ميّالين إلى الحذر وكانوا يدركون الكلفة التي تسببها هذه الحملات السرية إلى اليابان ولهذا فقد أيدوا فكرة تعليق رحلات هرفيه جونكور والإعتماد بدلاً من هذا على البيوض المستوردة من الشرق الأوسط على أيدي التجار الكبار. أصغى بالدابيو للجميع دون أن ينس بكلمة واحدة. وعندما جاء دوره أخيراً فإن كل ما فعله هو أن وضع عصاه على الطاولة ونظر إلى الرجل الجالس مقابله. وانتظر.

كان هرفيه جونكور على علم بأبحاث باستور وكان قرأ البرقيات الواردة من اليابان ولكنه رفض التعليق بشأنها على الدوام. فضّل أن يكرس وقته لتطوير خطته بشأن الحديقة التي

غادر هرفيه جونكور متوجهاً إلى اليابان في بداية شهر تشرين الأول. عبر الحدود الفرنسية بالقرب من ميترز، إجتاز عرض ورتمبرغ وبافاريا ودخل إلى النمسا ووصل إلى فيينا وبودابست بالقطار ثم واصل مسيرته حتى كييف. قطع ألفي كيلومتر من السهوب الروسية على ظهر حصان واجتاز الأورال ودخل إلى سيبيريا واستمر لأربعين يوماً حتى وصل بحيرة البايكال المعروفة محلياً باسم "الأخيرة". انحدر مع مجرى نهر أمور محاذياً الحدود الصينية حتى المحيط وعندما أدرك المحيط توقف في ميناء سابريك لعشرة أيام إلى أن أوصلته سفينة مهربين هولندية إلى رأس ترايا على الساحل الغربي من اليابان. ما وجدته هناك كان بلداً تائهاً ينتظر حرباً لا تستطيع أن تندلع. سار عشرة أيام من دون حاجة إلى أن يلتزم بإجراءاته العادية في الخيطة وإلى خريطة توزع القوى المحيطة به وشبكة المراقبة التي يبدو أنها تفتت في انتظار انفجار كان من شأنه أن يعيد ترتيبها من جديد. في شيراكاوا إلتقى الرجل الذي كان عليه أن يأخذه إلى هاراكي. بعد يومين من المسير على ظهر الحصان ظهرت القرية أمام ناظره. دخل إليها هرفيه جونكور مشياً على الأقدام كي يسبقه نبأ وصوله.

ينوي تشييدها حول بيته. في زاوية مخفية من مكتبه كان يحتفظ بقصاصة ورق مطوية أربع مرات، بإشاراتها المرسومة فوق بعضها بعضاً، بحبر أسود. كان يحتفظ بحساب معتبر في البنك. حياته كانت هادئة. كان يراوده الوهم المشروع في أن يصبح أباً. عندما رفع بالدابيو بصره ونظر إليه قال هرفيه جونكور ما يلي:

- أنت تقرر يا بالدابيو.

أتوا به إلى أحد آخر البيوت في القرية، في الأعالي، يطل على الغاية. رافقه خمسة من الخدم. سلم إليهم أمتعته وصعد إلى الشرفة. استطاع أن يميز قصر هارابي على الطرف الأقصى من القرية، أكبر من البيوت الأخرى ومحاط بأشجار أرز كبيرة تحمي عزلته. واصل هرفيه جونكور النظر إلى البيت كما لو أنه لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق بينه وبين الأفق. هكذا فقد رأى

أخيراً،

فجأة،

السماء فوق القصر منقطة بآلاف الطيور وهي تطير كأنها إنبثقت من الأرض. طيور من كل نوع، تطير فوق المكان كله في رعب مسعور، تغني وتصيح. كتلة من الأجنحة المتفجرة مثل الألعاب النارية. غيوم من الألوان مدّت على الضوء. أصوات رعب، موسيقا طيران، تخترق السماء.

ابتسم هرفيه جونكور.

بدأت القرية تضج كأن جبلاً من النمل قد انهار.

كان الجميع يتراکضون ويصرخون ويراقبون الطيور التي أفلتت. لسنوات طويلة كانت تعتبر مفخرة مالکها. الآن هي ذي مثل مسخرة بأجنحة تطير في السماء. ترك هرفيه جونكور منزله وراح يتسكع في أزقة القرية ناظراً إلى الأمام بهدوء تام. لم يظهر أن أحداً لاحظ قدومه وهو بدا ساهياً عن كل شيء.

كان خيطاً من ذهب يمر مستقيماً في سجادة حاکها رجل مجنون.

عبر الجسر على النهر وانحدر حتى وصل إلى أشجار الأرز ودخل في الظل ثم ظهر ثانية. رأى أمامه القفص خالياً تماماً وقد فتحت أبوابه على وسعها. لمح امرأة تقف أمامه. لم ينظر هرفيه جونكور حوله بل واصل مشيه البطيء بهدوء ولم يتوقف إلا حين أصبح قبالتها.

لم تكن لعينيها سحنة شرقية وكان وجهها وجه أي فتاة. تقدم هرفيه جونكور خطوة نحوها، مد يده نحوها. فتح يده. في كفه كان يحمل قصاصة ورق مطوية أربع مرات، رأتها وأشرقت ابتسامة على وجهها كله. وضعت يدها على يد هرفيه جونكور وشدت عليها بنعومة. توقفت لحظة، ثم سحبت يدها أخذاً بين أصابعها قصاصة الورق التي تجوّلت حول العالم. كانت بالكاد

أخفتها في إحدى طبيّات ثوبها حين ارتفع صوت هاراكي:  
أهلاً، صديقي الفرنسي.

توقف على بعد بضع خطوات. كيمونو غامق، شعر أسود ضمّ  
بالكامل على ناصية الرقبة. اقترب. تفحص القفص ناظراً إلى  
الأبواب المفتوحة واحداً بعد الآخر.

- ستعود. إنه لأمر يصعب دائماً مقاومة العودة. ألا ترى  
ذلك؟ لم يجب هرفيه جونكور. نظر هاراكي في عينيه وقال له  
برقة:

- تعال معي.

تبعه هرفيه جونكور. مشى بضع خطوات ثم استدار إلى الفتاة  
وانحنى.

- أمل أن أراك ثانية.

واصل هاراكي المشي.

- إنها تجهل لغتك.

قال.

- تعال.

٣٤

ذلك المساء دعا هاراكي هرفيه جونكور إلى بيته. كان هناك  
بعض الرجال من القرية ونساء في قمة أناقتهم، وقد طلين  
وجوههن بالأبيض والألوان الزاهية. شربوا الساكي ودخنوا في  
غلايين خشبية طويلة تبغاً حاداً، مدوخاً. أطلّ القفازون وأثار  
رجل الضحك بتقليده للناس والحيوانات. عزفت ثلاث نساء على  
آلات وترية وعلى وجوههن ابتسامات ثابتة. جلس هاراكي في  
مركز الشرف، مرتدياً لباساً داكناً وحافي القدمين. إلى جانبه  
جلست المرأة صاحبة الوجه الطفولي، مرتدية ثوباً حريرياً باهراً.  
كان هرفيه جونكور في الطرف الأقصى من الغرفة. كان محاطاً  
بالرائحة الزكية إلى حد الذهول للنساء من حوله، وكان يبتسم  
للرجال الذين كانوا سعداء بمشاركته في أحاديثهم، مع أنه كان  
مرتبكاً لعجزه عن فهم ما يقولون. بين الحين والآخر كان يبحث  
عن عينها وهي كانت تبحث عن عينيه وتنظر إليهما. كان نوعاً  
من رقص حزين، سري وناقص. رقص هرفيه جونكور حتى وقت  
متأخر من الليل، ثم استقام واقفاً واعتذر بالفرنسية مصمماً على  
صرف امرأة قررت أن ترافقه. شقّ طريقه وسط غيوم من الدخان  
ورجال يخاطبون بلغتهم المقلّة، وغادر. قبل تركه للغرفة ألقى  
نظرة أخيرة في اتجاهها. كانت تنظر إليه من خلل عينين  
صامتتين، نظرات أبدية.

لم يسبق أن رأى هرفيه جونكور تلك الفتاة، وفي حقيقة الأمر فإنه لم يرها في تلك الليلة أيضاً. في الغرفة غير المضاءة أحس ببهاء جسمها وشعر بيدها وفمها. مارس الحب معها لساعات، مستعملاً إيماءات لم يقم بها من قبل قط، وترك نفسه يتعلم إيقاعاً بطيئاً كان مجهولاً له حتى ذلك الحين. في الظلام لم يكن شيئاً أن يقوم بممارسة الحب مع هذه الفتاة وليس معها هي. قبل الفجر بوقت قليل نهضت الفتاة، ارتدت الكيمونو وغادرت.

دار هرفيه جونكور حول القرية وتنفس هواء الليل الطازج وترك نفسه يضيع وهو يصعد الدروب التي تتسلق سفح الجبل. حين وصل إلى بيته لمح قنديلاً مضيئاً يتأرجح يمنة ويسرة خلف الجدران الورقية. دخل البيت ورأى امرأتين واقفتين أمامه، فتاة شرقية في كيمونو أبيض بسيط. وهي. كانت عيناها تشعان بفرح غامر. لم تمنحه وقتاً لفعل أي شيء. اقتربت منه، أخذت إحدى يديه وحملتها إلى وجهها ومسحت بها شفتيها ثم ضغطت عليها ووضعتها على يدي الفتاة المرافقة لها وتشبثت بها هناك لحظة كي لا تفلت. ثم سحبت يدها وتراجعت خطوتين إلى الخلف وحملت القنديل وركزت نظرها لحظة على عيني هرفيه جونكور ثم أسرع في الخروج. كان القنديل برتقالي اللون. اختفت في الليل، ضوء صغير يهرب بعيداً.

صباحاً وجد هرفيه جونكور رجال هاراكي ينتظرونه أمام البيت. كان هناك خمس عشرة شقة من لحاء شجر التوت مغطاة بالكامل ببيض دود القز، صغيرة، بلون العاج. تفحص هرفيه جونكور كل شقة لحاء بعناية ثم تفاوض على السعر ودفع بالليرات الذهبية. قبل أن يغادر الرجل أسرَّ له هرفيه جونكور عن رغبته في لقاء هاراكي. هزَّ الرجل رأسه. فهم هرفيه جونكور من تعابير الرجل أن هاراكي قد غادر في الصباح الباكر مع بطانته ولا يعرف أحد موعد عودته. عبر هرفيه جونكور القرية كلها وصولاً إلى بيت هاراكي.

كل ما وجدته هناك كان بعض الخدم الذين ردّوا على أسئلته بهزة من الرأس. بدا البيت مهجوراً. ورغم بحثه المسعور في كل ركن متأملاً أتفه الأشياء فإنه لم يعثر على شيء من شأنه أن يكون رسالة له. ترك المنزل وفي طريق عودته إلى القرية صادف القفص الكبير. كانت الأبواب أغلقت ثانية. وفي الداخل كان هناك آلاف الطيور تتفافز، محمية من السماء.

انتظر هرفيه جونكور يومين إضافيين انتظاراً لإشارة من أي نوع ثم انطلق.

لم يمض ساعة على تركه للقرية حين تنهى إليه صوت غريب، فضي. بين أوراق الشجر كان يمكن تمييز آلاف النقاط السوداء يؤلفها سرب من الطيور التي كانت تستريح. من دون أن يشرح شيئاً للرجلين الذين يرافقانه سحب هرفيه جونكور اللجام، أخرج مسدسه من خاصرته وأطلق ست طلقات في الهواء. أرتفع سرب الطيور المذعور إلى الجوِّ مثل غيمة من الدخان تتصاعد من بيت يحترق. كان السرب كبيراً إلى حد كان يمكن تمييزه على مسافة عدة أيام من هناك. غطى السرب السماء بالسواد من دون أي هدف سوى الطيران.

بعد ستة أيام استقل هرفيه جونكور سفينة مهربين هولندية في تاكاوكا فأخذته إلى سابريك. ومن هناك حاذى الحدود الصينية وصولاً إلى بحيرة بايكال. قطع أربعة آلاف كيلومتر من الأراضي السيبيرية، اجتاز الأورال، وصل إلى كييف وعبر أوروبا كلها بالقطار، من الشرق إلى الغرب، إلى أن بلغ فرنسا بعد رحلة استغرقت ثلاثة أشهر. يوم الأحد الأول من شهر نيسان، وقت القداس الكبير، وصل إلى بوابة لافي ديو. أوقف العربة ولدقائق معدودة بقي جالساً، دون حراك، خلف الستائر المسدلة. ثم نزل وسار على الأقدام، خطوة، خطوة، والإرهاق يثقل كاهله.

سأله بالدابيو عما إذا رأى الحرب.

- ليست التي كنت أتوقعها. أجب.

تلك الليلة صعد إلى سرير هيلين ومارس الحب معها بلهفة إلى حد أنها خافت ولم تستطع حبس دموعها. عندما لاحظ ذلك حاولت أن تجبر نفسها على الابتسام له.

- لأنني سعيدة وحسب.

قالت بصوت ناعم.

سلم هرفيه جونكور البيوض إلى مربيّ دود القز في لافي ديو. وبعد ذلك لم يظهر في المدينة لعدة أيام حتى أنه أهمل زيارته اليومية لفردان التي كانت غدت عادة ثابتة لديه. في أوائل شهر أيار أثار دهشة الجميع حين أخذ البيت الذي كان هجره جان بيريك، الرجل الذي كان تخلى عن الكلام يوماً بعد يوم ولم ينبس بكلمة أخرى إلى آخر يوم في حياته. ظن الجميع أنه يفكر بتحويل البيت إلى مختبر. ولكنه لم يبق حتى بتنظيفه. يذهب إلى هناك من وقت إلى آخر ويعتكف في تلك الغرف. لا أحد يعرف لماذا.

في أحد الأيام أخذ بالدابيو معه.

- هل تعلم لماذا توقف جان بيريك عن الكلام؟

- هذا واحد من الأشياء الكثيرة التي لم يتحدث عنها قط.

مضت السنون، ولكن الصور بقيت على الجدران والصحون على الخزائن بجانب المغسلة.

لم يكن منظرًا مفرحاً وكان بالدابيو، من جهته، تواقاً للإنصراف. ولكن هرفيه جونكور ظلّ يحدّق بذهول في تلك الجدران الميتة، المعفنة.

كان الأمر واضحاً: يبحث عن شيء ما هناك.

- ربما تظهر الحياة لك أحد جوانبها بحيث لا تترك مجالاً لقول أي شيء.

قال.

- أي شيء، أبدأً.

لم يكن بالدأبويو من طبيعة تسمح له بخوض نقاشات خطيرة. تمدد على سرير جانب بيريك.

- الأرجح أن أي شخص كان سيفقد الكلام في مكان كئيب كهذا.

تابع هرفيه جونكور إعتكافه لعدة أيام، دون أن يظهر في المدينة إلا نادراً، مكرساً وقته للعمل على خططه من أجل الحديقة التي سينجزها عاجلاً أو آجلاً. يملأ الصفحات برسوم غريبة تشبه الآلات. ذات مساء سألته هيلين:

- ما هي هذه الأشياء؟

- إنه قفص.

- قفص؟

- نعم

- لماذا؟

أبقى هرفيه جونكور عينيه على الرسوم.

- تملأينه بالطيور، قدر ما تستطيعين، وذات يوم، حين يحدث شيء سعيد لك، تفتحين الأبواب وتراقبينها وهي تطير وتبتعد.

٤.

في نهاية شهر حزيران سافر هرفيه جونكور مع زوجته إلى نيس.

أقاما في فيلا صغيرة على شاطئ البحر. كانت هذه رغبة هيلين. كانت على قناعة في أن هدوء منتجع بعيده عن الأنظار من شأنه أن يخفف من اليأس الذي كان قد خيم على زوجها. وهي كانت ماكرة بما يكفي لأن يحقق إحدى نزواته الخاصة. كان الأمر يتلخص في إشباع نزوة الرجل الذي تحبه. تمتعا بثلاثة أسابيع من الهناء الهادي، الآمن.

في الأيام التي كانت دافئة إلى حد كافٍ يستأجران مصيدة ويكتشفان القرى المخفية بين التلال، من حيث كان البحر يلوح كنقطة على صفحة ملونة. أحياناً كانا يغامران بالذهاب إلى المدينة لحضور حفل موسيقي أو مناسبة اجتماعية. ذات مساء تلقيا دعوة من البارون الإيطالي الذي كان يحتفل بعيد ميلاده الستين بعشاء رسمي في الفندق السويسري.

كانت لحظة تناول الحلوى، بعد الطعام، حين صادف أن نظر هرفيه جونكور إلى هيلين. كانت جالسة على الطرف الآخر من الطاولة بالقرب من رجل إنكليزي جذاب كان وضع في عروة معطفه باقة من الزهور الزرقاء الصغيرة. رآه هرفيه جونكور يميل في اتجاه هيلين ويهمس شيئاً في أذنها.

وصل بالدابيو إلى منزل هرفيه جونكور مع مطلع الصباح. جلسا عند سقيفة الباب.

- ليست حديقة، أليس كذلك؟

- لم أبدأ العمل فيها بعد، يا بالدابيو.

- أوه.

بالدابيو لا يدخن أبداً في الصباح. مع هذا أخرج غليونه، حشاه ثم أشعله.

- قابلت ذلك الشاب، باستور. لديه إطلاع على الأشياء. هذا ما أظهره لي. يستطيع أن يميز البيض الفاسد من البيض السليم. هو لا يستطيع معالجتها بالطبع ولكنه يستطيع أن يفرز البيض السليم جانباً.

وهو يعتقد أن ثلاثين بالمائة من البيض الذي نتجه سليمة.

صمت.

- يقولون أن الحرب أندلعت في اليابان. أقصد الآن تماماً. الأنكليز يسلمون الحكومة والهولنديون يسلمون المعارضة. يبدو أنهم متفقون على ذلك. يتركون لهم الكثير من الحبل على الغارب ثم ينقضون عليه ويتقاسمون فيما بينهم. القنصلية الفرنسية تلاحظ كل هذا. أقصى ما يعمله هؤلاء هو المراقبة. إنهم قادرون فقط على إرسال برقيات تتحدث عن المجازر

انفجرت هيلين ضاحكة، أجمل ضحكة، وإذ فعلت ذلك فإنها مالت في اتجاه الرجل الانكليزي ومسحت كتفه بشعرها في حركة خالية من أي ارتباك وعلى جانب كبير من الحرص. نظر هرفيه جونكور إلى صحنه. لاحظ أن يده، التي كانت تقبض بثبات على ملعقة فضية، ترتجف.

في ما بعد، في غرفة التدخين، اقترب هرفيه جونكور، الذي كان يترنح من أثر الإفراط في الخمر، من رجل كان يجلس وحيداً يحدق أمامه بنظرة ساهية. مال إليه وقال بهدوء.

- عندي شيء هام جداً أقوله لك، مسيو. نحن كلنا مقرفون. نحن كلنا مدهشون ومقرفون.

كان الرجل من دريون. كان يتاجر بالعجول ويفهم الفرنسية. انفجر ضاحكاً بصخب وهو يوميء دون توقف. بدا كما لو أنه لن يتوقف ابداً.

بقي هرفيه جونكور وزوجته في الريفيرا حتى بداية شهر أيلول. تركا الفيلا في ندم لأن نداء الحب كان لفهما بين تلك الجدران.

والأجانب الذين تُجزّ رقابهم كالخراف.

صمت.

- ذاك الإيطاليان، فريري والآخر، اللذان سافرا إلى الصين العام الماضي.... عادا يحملان البيوض، من نوعية جيدة. خمسة عشر ألف أونصة. أهالي بولي أيضاً اشتروا كمية. هم يقولون أن البضاعة صنف أول. سيعاودون الكرة مرة ثانية في الشهر القادم وهما يعرضان صفقة جيدة: أسعارهما معقولة. أحد عشر فرنكاً للأونصة الواحدة. والبضاعة كلها مضمونة. يمكن الإعتماد عليهما. هناك تنظيم قوي يسندهما. هما يبيعان البيض لنصف أوربا. ناس يمكن الإعتماد عليهم، صدقني.

صمت.

- لا أعرف. ربما يتعيّن علينا تدبر الأمر. بالبيض الذي في حوزتنا، وعمل باستور، بالإضافة إلى ما يمكننا شراءه من الإيطاليين يمكننا أن نتغلب على المصاعب. في المدينة يقولون أنه من الجنون إرسالك إلى تلك الأمكنة مرة أخرى. مع هذه الكلفة العالية. يقولون أنها مخاطرة، وهم على حق في ذلك، في المرات السابقة كان الأمر مختلفاً، ولكن الآن... الآن ليس سهلاً أن يعود المرء سالماً.

صمت.

- الحقيقة هي أنهم لا يريدون أن يخسروا البيض. وأنا لا أريد أن أخسرك.

نظر هرفيه جونكور إلى الخارج لحظة وتأمل الحديقة التي لم تكن موجودة بعد.

ثم فعل شيئاً لم يفعله من قبل قط.

- أنا ذاهب إلى اليابان، يا بالدابيو.

قال.

- أنا ذاهب لشراء البيض، من مالي الخاص إذا اقتضى الأمر. كل ما يترتب عليك القيام به هو أن تقرر ما إذا كنت سأبيعه لك أو لشخص آخر.

لم يتوقع بالدابيو ذلك. بدا الأمر وكأن المعاق قد فاز في اللعب، في الضربة النهائية، بأربع كرات. حساب مستحيل.

أخبر بالدابيو مربي دود القز في لافي ديو أنه لا يمكن الإعتماد على باستور وأن الإيطاليين قد غزوا نصف أوروبا وأن الحرب في اليابان ستتوقف في الشتاء وأنه في المنام رأى القديسة أغنيس تسأله ما إذا كان هؤلاء مجرد حفنة من الحمقى. كانت هيلين الوحيدة التي لم يكن في وسعه خداعها.

- هل يتعين عليه حقاً السفر، بالدابيو؟

- نعم.

- ولكن لماذا؟

- لا أستطيع أن أمنعه. إذا أصر على السفر إلى هناك فإن كل ما أستطيع فعله هو منحه سبباً آخر للعودة.

ساهم جميع صنّاع الحرير في لافي ديو في تمويل الرحلة ولو بتردد. بدأ هرفيه دونكور استعدادته وفي أوائل شهر تشرين الأول كان جاهزاً للإطلاق. كما في كل عام، ساعدته هيلين، دون أن تطرح عليه أي سؤال محتفظة بالهموم لنفسها. في الأمسية الأخيرة فقط، وبعد أن أطفأت القنديل، وجدت في نفسها القوة لتقول له: - أوعدني أنك سترجع.

بصوت ثابت وبصرامة.

- أوعدني أنك سترجع.

في الظلام أجاب هرفيه جونكور

- أوعد.

في العاشر من شهر تشرين الثاني من عام ١٨٦٤ انطلق هرفيه جونكور في رحلته الرابعة إلى اليابان. اجتاز الحدود الفرنسية قرب ميترز، عبر ورتمبرغ وبافاريا ودخل النمسا ووصل إلى فيينا وبودابست بالقطار، ومن هناك واصل الرحلة حتى كيسيغ. قطع ألفي كيلومتر من السهوب الروسية على ظهر الحصان، اجتاز الأورال، دخل سيبيريا، واصل المسير أربعين يوماً حتى وصل إلى بحيرة بايكال التي تسمى محلياً "المقدسة". انحدر مع مجرى نهر أمور، محاذياً الحدود الصينية وصولاً إلى المحيط، وحين أدرك المحيط توقف في ميناء سابريك لثمانية أيام إلى أن أوصلته سفينة مهربين هولندية إلى رأس ترايا على الساحل الغربي من اليابان. عبر دروب فرعية، اجتاز مقاطعات إيشيكاوا وتوياما ونيغاتا على ظهر الحصان ومن ثم دخل مقاطعة فوكوشيما. عندما بلغ شيراوكاوا وجد المدينة شبه مهدمة وكانت ثمة حامية من الجنود الحكوميين تقسيم وسط الأنقاض. سار إلى الطرف الشرقي من القرية وانتظر مبعوث هاراكي خمسة أيام عبثاً. في فجر اليوم السادس رحل إلى التلال الشمالية. كان لديه بضع خرائط بسيطة وما كان في وسعه أن يتذكره. تجوّل عدة أيام إلى أن تعرّف إلى النهر ثم الغابة ثم الطريق. في نهاية الطريق وجد قرية هاراكي: محروقة بالكامل، البيوت، الأشجار، كل شيء.

قضى هرفيه جونكور ثلاث ساعات وسط أنقاض القرية. لم يستطع أن يغادر بالرغم من أنه كان على يقين من أن كل ساعة يقضيها هناك من شأنها أن تخلق الخطر له ولأهالي لافي ديو كلهم. لم يكن لديه بيوض دود القز، وحتى لو قبيض له أن يجد بعضاً منها لم يكن أمامه أكثر من شهرين ليعبر العالم ثانية قبل أن تفقس على الطريق وتصير كومة من الدويدات العديمة النفع. تأخر يوم واحد وحسب قد يعني النهاية. كان يعرف ذلك ومع هذا فإنه لم يستطع أن ينتزع نفسه ويمضي. ولهذا بقي هناك إلى أن حصل شيء مدهش: فجأة خرج ولد صغير من مكان ما. كان رث الثياب وكان يتعثر في مشيته محمداً في الغريب مذعوراً. لم يتحرك هرفيه جونكور. مشى الولد الصغير بضع خطوات أخرى ثم توقف. لبث الإثنان ينظران في بعضهما بعضاً وخطوات قليلة تفصل بينهما. ثم تناول الصغير شيئاً من ثيابه واقترب من هرفيه جونكور، مرتجفاً من الخوف، وسلّمه إياه. قفاز. رأى هرفيه جونكور بعيني خياله بحيرة وثوباً برتقالياً على الأرض وموجات الماء الصغيرة تغسل الساحل كما لو أنها قادمة إلى هناك من مكان بعيد. أخذ القفاز وابتسم للصبي.

- إنه أنا، الفرنسي... رجل الحرير، الفرنسي، أتفهم؟ إنه أنا.

توقف الصبي عن الإرتجاف.

لم يكن هناك كائن حي.

توقف هرفيه جونكور دون حراك، متأملاً الموقد الهائل المطفئ.

خلفه كان هناك طريق طوله ثمانية آلاف كيلومتر.

أمامه، لاشيء لقد لمح فجأة ما كان يعتبره غير مرئي.

نهاية العالم.

سارا صوب الشمال، عدة أيام، عبر الجبال. لم يكن هرفيه جونكور يعرف إلى أين يمضي. ترك الولد الصغير يقوده دون أن يحاول سؤاله عن شيء. بلغا قريتين. كان السكان مختبئين في الداخل. النساء هربت. كان عند الولد قبيرة تطلق أصواتاً غريبة في أوتجاههم. لم يكن الولد يتجاوز الرابعة عشرة من عمره. وكان ينفخ إلى الأبد في قصبة صغيرة فتصدر منها أصوات كل الطيور في العالم. كان يبدو وكأنه يقوم بأسعد شيء في حياته. في اليوم الخامس وصلا إلى قمة التلة. تناول هرفيه جونكور منظاره ونظر فرأى ما يشبه الموكب: رجال مسلحون، نساء وأطفال، عربات، ماشية. قرية بأكملها تتحرك. على ظهر دابة، مرتدياً ثوباً أسود، كان هاراكبي. رآه هرفيه جونكور. خلفه كان هودج يتمايل وعلى جهاته الأربع أسدلت ستائر زاهية.

- الفرنسي...

كانت الدموع تلتصع في عينيه ولكنه ضحك. بدأ يتكلم باندفاع. كان على وشك أن يصرخ ثم ركض مشيراً إلى هرفيه جونكور أن يتبعه.

اختفى خلف طريق في الغابة يؤدي إلى الجبال.

لم يتحرك هرفيه جونكور. أدار القفاز في يديه كما لو كان ذلك الشيء الوحيد الذي بقي من عالم منقرض. كان يعرف أن الوقت بات متأخراً جداً وأنه لم يكن له أي خيار.

وقف. عاد ببطء إلى حصانه. إمتطاه. ثم فعل شيئاً غريباً. غرز عقبه في خاصرتي الحيوان. وغادر. نحو الغابة. في أعقاب الولد الصغير، نحو نهاية العالم.

قفز الولد عن الحصان، قال عدة أشياء ثم استعجل ذاهباً. قبل أن يختفي بين الأشجار استدار ووقف لحظة باحثاً عن إشارة ملائمة كي يقول عبرها أن الرحلة كانت ممتعة للغاية.  
- كانت رحلة ممتعة للغاية. قال له هرفيه جونكور. طوال ذلك اليوم ظل هرفيه جونكور يتبع القافلة على بعد مسافة منها. عندما رآها تتوقف ليلاً واصل السير على الطريق إلى أن اقترب منه ثلاثة رجال مسلحين أخذوا حصانه وأمتعته وقادوه إلى خيمة. انتظر وقتاً طويلاً ثم ظهر هاراكى. لم يلق عليه سلاماً. لم يجلس أيضاً.

- كيف وصلت إلى هنا، أيها الفرنسي.

لم يتحر هرفيه جونكور جواباً.

- سألت من الذي أتى بك إلى هنا؟

صمت.

- هنا لم يتبق لك شيء، إنها الحرب. وهي ليست حربك. اذهب.

أخرج هرفيه جونكور محفظة جلدية صغيرة، فتحتها وأفرغ محتوياتها على الأرض. قطع ذهبية.

- الحرب لعبة مكلفة. أنت تحتاج إليّ. وأنا أحتاج إليك.

لم يلق هاراكى نظرة على الذهب المبعثر على الأرض. استدار على عقبيه وانصرف.

قضى هرفيه جونكور الليل عند طرف المخيم. لم يتكلم إليه أحد.

لم يبدو أن أحداً رآه. كان الجميع ينامون على الأرض، قرب مواقد النار. كانت هناك خيمتان. بالقرب من إحداها لمح هرفيه جونكور الهودج، فارغاً وعلى أطرافه الأربعة علق أقفاص صغيرة - طيور. أجراس ذهبية كانت تتدلى من الأقفاص. كانت ترنّ مع نسيمات الليل الخفيفة.

حين استيقظ رأى القرية تتأهب لإستئناف المسيرة. رُفعت الخيم. كان الهودج ما يزال هناك. كان مفتوحاً. كان الناس يُعَبِّئون العربات بصمت. نهض واقفاً وتطلع حوله بدقة. العيون التي ألتقت بعينيه كانت تلك التي تحمل سحنة شرقية وحسب وسرعان ما كانت تخفض. رأى رجالاً مسلحين وأطفالاً لا يكون. رأى الوجوه المتحجرة للناس حين يهربون. ورأى شجرة بجانب الطريق. معلقاً من أحد الأغصان، من رقبتة، كان الولد الصغير الذي قاده إلى هذا المكان.

دنا هرفيه جونكور ووقف للحظات يعين النظر فيه كما لو كان في غيبوبة. ثم فكَّ الحبل المربوط بالشجرة، استجمع جسم الولد الصغير ووضعه إلى الأرض ثم جثا بالقرب منه. لم يستطع أن يحوّل عينيه عن ذلك الوجه. لهذا لم ير القرية وهي تمضي. ولكنه سمع ما بدا أنه الصوت البعيد للقافلة وهي تمرّ به على الطريق. لم يرفع نظره بالرغم من أنه سمع صوت هاراكبي، على بعد خطوات، يقول له:

- اليابان بلد قديم. أتفهم؟ لديها قوانين قديمة. يقول القانون أن هناك إثنتي عشرة جريمة يمكن إعدام مرتكبيها. وإحداها حين يحمل خادم رسالة غرامية إلى سيدته.

لم يرفع هرفيه جونكور نظره عن الولد المقتول.

- لم يحمل رسالة غرامية قط

- هو كان الرسالة الغرامية.

شعر هرفيه جونكور بشيء يضغط على رأسه ويدفعه إلى الأرض.

- هذه بندقية، أيها الفرنسي، اخفض نظرك، رجاءً.

لم يفهم هرفيه جونكور في البدء. ثم تناهي إلى سمعه، حين سارت القافلة بالقرب منه، الصوت الذهبي لآلاف الأجراس الذهبية يقترب شيئاً فشيئاً صاعداً إليه على الطريق، خطوة بعد أخرى، وبالرغم من أن نظره لم يقع على شيء سوى ذلك التراب الأسود فقد استطاع أن يرى الهودج بعيني خياله، يتأرجح مثل رقاص ساعة. رآه يأتي على الطريق، ياردة بعد أخرى، يقترب ببطء ولكن بثقة، والصوت يعلو أكثر فأكثر، إلى حد لا يحتمل. أقترب إلى حد لمسه. إنه الآن بالقرب منه، بالقرب منه تماماً، في تلك اللحظة، تلك المرأة، بالقرب منه.

رفع هرفيه جونكور رأسه.

أشباه فاخرة، حرير. كان الهودج محاطاً بالحرير. بآلاف الألوان، البرتقالي، الأبيض، الأصفر، الفضي. لا شرخ قط في ذلك النسيج الرائع. فقط حفيف تلك الألوان وهي تتماوج في الهواء، أخف وأصلب من اللاشيء.

لم يسمع هرفيه جونكور صوت انفجار ينسف حياته. سمع ذلك الصوت الآخر يبتعد عنه. أحس بماسورة البندقية تبتعد عنه وسمع الكلمات الناعمة التي تلفظ بها هاراكبي:

- إذهب أيها الفرنسي، ولا ترجع ثانية قط.

لا شيء سوى الصمت على الطريق. جثة ولد صغير على الأرض. رجل يجثو حتى البصيص الأخير من النهار.

استغرق الأمر أحد عشر يوماً حتى وصل هرفيه جونكور إلى يوكوهاما.

رشا ضابطاً يابانياً كي يمر ستة عشر صندوقاً من بيوض دود القز وصلت من جنوب الجزيرة. لفها بالحريير ووضعها في أربعة براميل خشبية مستديرة. وجد قارباً ينقله إلى القارة وفي الأيام الأولى من شهر آذار وصل إلى الساحل الروسي. اختار الطريق الذهاب إلى أقصى الشمال جرياً وراء البرودة كي تمنع انبثاق الحياة في البيض وتمدد الوقت قبل أن تفقس. قام بمسيرات اضطرارية على طول أربعة آلاف كيلومتر في سيبيريا، اجتاز الأورال ووصل إلى سانت بطرسبرغ. أنفق ثروة من الذهب لشراء أطنان من الجليد وشحنها، مع البيض، إلى شاحنة ذاهبة إلى هامبورغ. استغرقت الرحلة ستة أيام. وضع البراميل الأربعة المستديرة على متن قطار ذاهب إلى الغرب. بعد إحدى عشرة ساعة منذ الإنطلاق من مدينة تدعى إيرفيلد توقف القطار للتزود بالماء. تطلع هرفيه جونكور حوله. كانت شمس الصيف تضرب حقول القمح والعالم من حولها. قبالتة جلس تاجر روسي خلع حذاءه وراح يهوي نفسه بالصفحة الأخيرة من جريدة مكتوبة بالألمانية.

نظر هرفيه جونكور إلى الرجل. لاحظ بقع العرق على قميصه

بعد تسعة أيام دخل هرفيه جونكور لافي ديو. لمحت زوجته العربية من بعيد آتية عبر الممر المشجر. قالت لنفسها أنه ينبغي عليها ألا تبكي وألا تركض.

نزلت إلى الباب الخارجي، فتحتة، ووقفت عند العتبة.

عندما وصل هرفيه جونكور إليها ابتسمت. احتضنها وقال لها بهدوء: - إبقى معي، أرجوك.

في تلك الليلة سهرتا حتى وقت متأخر، جالسين جنباً إلى جنب على المرج أمام بيستهم. حدثته هيلين عن لافي ديو، عن تلك الشهور التي قضتها وهي تنتظر وتلك الأيام الأخيرة المرعبة.

- كنت ميتاً.

قالت.

- ولم يبق في العالم أي شيء جميل.

وقطرات تنتصب على وجهه ورقبته. أبدى الروسي بعض الملاحظات ثم ضحك. ابتسم له هرفيه جونكور ونهض. جمع أمتعته وغادر المقصورة. مشى في القطار حتى المقصورة الأخيرة. كانت مقصورة بضائع تحمل السمك واللحم المحفوظ في الجليد. كان الماء يرشح إلى الخارج كما لو أنه يخرج من حوض اخترقته آلاف الرصاصات. فتح الباب وتسلق المقصورة وحمل البراميل الخشبية المستديرة. واحداً بعد الآخر، وأخذها إلى الخارج وتركها هناك بجانب السكة. أغلق الباب ثانية ووقف ينتظر. عندما كان القطار يتأهب للرحيل نادوا عليه أن يستعجل ويركب. ردّ بتلويحة من يده وعلامة وداع. شاهد القطار يمضي ويختفي بعيداً. انتظر حتى لم يعد يستطيع سماع صوته ثم انحنى على أحد البراميل الخشبية، نزع الأختام عنه وفتحه. فعل الشيء نفسه للبراميل الثلاثة الأخرى.

ببطء.

بحرص.

ملايين الدويدات. ميتة.

كان ذلك في ٦ أيار ١٨٦٥.

حول مفاقس لافي ديو كان الناس ينظرون إلى أشجار التوت تكتظ بالخضرة وهم يشاهدون خرابهم بأعينهم. كان بالدابيو عشر على بضعة طرود تحوي البيض. غير أن الدويدات ماتت في اللحظة التي أبصرت فيها النور. الحرير الخام الذي أفلحوا في الحصول عليه من الدويدات القليلة التي بقيت على قيد الحياة لم يكن يكفي لتشغيل أكثر من اثنين من المطاحن السبع في المدينة.

- هل لديك أفكار؟ سأل بالدابيو.

- فكرة واحدة. أجب هرفيه جونكور.

في اليوم التالي صرّح بأنه ماضٍ إلى إنجاز الحديقة لقصره خلال أشهر الصيف. جلب رجالاً ونساءً من المدينة لتشغيلهم. نظفوا التلة من الحطب وسوّوا جوانبها ليصير النزول منها إلى الوادي أكثر نعومة. استعملوا الأشجار والأسيجة كي يصنعوا أجمّات مفصلة ومكشوفة. استعملت الزهور، بجميع أشكالها، لإنجاز حدائق تنفتح على الخارج مثل الممرات الكثيرة وسط البتولا الباذخة. جرّوا الماء من النهر وجعلوه يتساقط من نافورة إلى أخرى على طول الطريق إلى الجانب الغربي من الحديقة حيث يتجمع ويؤلف بحيرة محاطة بالمرج. إلى الجنوب، وسط أشجار الليمون والزيتون، أقاموا قفصاً عظيماً من الخشب والمعدن. بدا مثل تعريشة معلقة في الفضاء.

كان ذلك عمل أربعة أشهر. في نهاية شهر أيلول كانت الحديقة منتهية. لم يكن أحد في لافي ديو رأى شيئاً شبيهاً بها من قبل. قالوا أن هرفيه جونكور وضع كل رأسماله فيها. قالوا أيضاً أنه عاد من اليابان رجلاً مختلفاً، بل ربما مريضاً. قالوا أنه باع البيض للإيطاليين ولديه الآن ثروة من الذهب ترقد في بنوك باريس. قالوا أنه لولا هذه الحديقة لكانوا تضوروا جوعاً. قالوا أنه كان محتالاً. قالوا أنه كان قديساً. بعضهم قال: شيء ما يحيط به، شيء يشبه الحزن.

كل ما قاله هرفيه جونكور عن رحلته هو أن البيوض فقسست في مدينة بالقرب من كولونيا، كان اسم المكان ايبرفيلد. أربعة أشهر وثلاثة عشر يوماً بعد عودته. بالدابيو يجلس قبالته، على طرف البحيرة، عند الحدود الغربية من الحديقة ويقول له:

- على أي حال فإنك ستقول الحقيقة لأحد ما عاجلاً أو آجلاً. يقول ذلك ببطء مصحوب بجهد، لأنه لا يعتقد، ولم يعتقد يوماً، أن الحقيقة تفيد في أي شيء.

يرفع هرفيه جونكور عينيه ويتأمل الحديقة. الوقت خريف. وثمة ضوء خفيف خادع يتلاعب هنا وهناك.

- حين رأيت هاراكي لأول مرة كان يلبس رداءً أسود، يجلس القرفصاء، دون حراك، في زاوية من الغرفة. بجانبه كانت امرأة اضطجعت ووضعت رأسها في حضنه. لم تكن لعينيها سحنة شرقية ووجهها كان وجه فتاة يافعة.

يصغي بالدابيو إليه في صمت. حتى النهاية. حتى قطار ايبرفيلد.

لا يفكر بشيء.

يصغي إليه.

يؤلمه أن يسمع هرفيه جونكور يقول بهدوء، مختنقاً:

- لم أسمع أبداً صوتها. وبعد لحظة.

- إنه نوع غريب من الألم. بهدوء.

- أن تموت مشتاقاً لشيء لن تختبره قط. يتمشيان عبر الحديقة جنباً إلى جنب. الشيء الوحيد الذي يقوله بالدابيو هو:

- ما الذي يجعل الجو بارداً إلى هذا الحد؟ هذا ما يقوله في لحظة محددة.

في بداية السنة الجديدة -١٨٦٦- رفعت اليابان رسمياً الحظر عن تصدير بيوض دود القز. خلال العقد التالي كانت فرنسا البلد الوحيد الذي استورد البيض الياباني بقيمة عشرة ملايين فرنك. بعد ذلك، ومع إفتتاح قناة السويس في ١٨٦٩ صار بالإمكان الوصول إلى اليابان برحلة لا تستغرق أكثر من عشرين يوماً وأقل من عشرين يوماً في العودة. تم اختراع الحرير الصناعي عام ١٨٨٦ على يد رجل فرنسي يدعى شاردونني.

بعد عودته إلى لافي ديو بستة أشهر تلقى هرفيه جونكور بالبريد مطروفاً بلون الخردل. عندما فتحه وجد سبعة أوراق مملوءة بكتابات هندسية. جبر أسود. أشكال يابانية. في ما عدا الأسم والعنوان على المطروف لم تكن ثمة كلمة واحدة بالحروف الغربية. الطوابع البريدية أشارت إلى أن الرسالة قادمة من أوستند. تلمس هرفيه جونكور الرسالة وتفحصها وقتاً طويلاً. بدت وكأنها كاتالوغ لبصمات أقدام طيور صغيرة ضُمت إلى بعضها بعضاً بعناية فائقة. كان مدهشاً التخمين بأن هذه الأشياء هي في الواقع إشارات أي جمرات صوت حطمته النيران.

احتفظ هرفيه جونكور بالرسالة أياماً متتالية. طواها ووضعها في جيبه. وإذا ما ترتب عليه أن يغير بذلته فإنه ينقل الرسالة إلى البذلة الجديدة. لم يفتحها قط. بين الحين والآخر يتلمسها وهو يتحدث إلى مزارع أجير أو يجلس على الشرفة منتظراً وقت العشاء. ذات مساء أجبر نفسه على تفحصها في ضوء المصباح داخل مكتبه. في ذلك الوضوح نطقت بصمات أقدام الطيور الصغيرة بصوت مخنوق.

ما قالته لم يكن مهماً أو أنه لم يكن قادراً على رفع الحياة عن مفاصلها. لم تكن ثمة طريق للمعرفة، وكان هذا ما يرضي هرفيه جونكور تماماً. سمع صوت وصول هيلين. وضع الرسالة على الطاولة. اقتربت منه، كما هو دأبها في كل ليلة قبل الإنصراف إلى غرفتها، وانحنت لتقبله. حين فعلت ذلك إنشق ثوبها عن صدرها. لاحظ هرفيه جونكور أنها لم تكن ترتدي شيئاً تحت الثوب وأن نهديها كانا صغيرين وأبيضين كنهدي فتاة صغيرة. لأربعة أيام استمر على هذا المنوال لا يغير شيئاً في روتينه اليومي المحسوب. في صباح اليوم الخامس ارتدى بذلة رمادية أنيقة وغادر إلى نيم. قال أنه سيرجع إلى البيت قبل المساء.

في شارع ١٢ موسكات كان كل شيء على حاله مثلما كان قبل ثلاث سنوات. لم تكن الحفلة انتهت. كانت الفتيات يافعات وفرنسيات. كان عازف البيانو يدندن ألحاناً بدت روسية. كان يستعمل المفتاح الهادئ. قد يكون العمر، أو ربما حزن نذل: في نهاية كل قطعة لم يعد يمرر يده اليمنى في شعره. لم يعد يتمتم:

Voilà-

يبقى صامتاً ينظر في شروذ إلى يديه.

سيدي وحبيبي

قالت

لاتخف. لاتتحرك. إبق صامتاً. لن يرانا أحد.

٥٨

استقبلته مدام بلانش دون كلمة. شعر أسود لامع. ملامح شرقية. كمال. زهور زرقاء صغيرة في أصابعها مثل الخواتم. ثوب أبيض طويل، شفاف إلى حد كبير. قدمان عاريتان. جلس هرفيه جونكور قبالتها. أخرج الرسالة من جيبه.

- هل تتذكريني؟

اكتفت مدام بلانش بإيماة خفيفة.

- أحتاج إليك مرة أخرى.

ناولها الرسالة. لم يكن ثمة سبب يدعوها إلى أخذ الرسالة ولكنها تناولتها وفتحتها. نظرت إلى الأوراق السبع ورقة بعد الأخرى، ثم رفعت عينيها إلى هرفيه جونكور.

- لا أهتم بهذه اللغة، مسيو، أريد أن أنساها، وأنسى حياتي هناك، وكل شيء.

جلس هرفيه جونكور دون حراك ويدها تقبضان على ذراعي الكرسي.

- سأقرأ هذه الرسالة من أجلك. سأفعل ذلك. ولا أريد نقوداً. ولكنني أريد وعداً: لا ترجع ثانية لتطلب مني هذا الرجاء.

- لك وعدي، يا مدام.

نظرت في عينيه، ثم نظرت إلى الصفحة الأولى من الرسالة. ورق أسمر. حبر أسود.

إلث هكذا. أريد أن أنظر إليك. لقد نظرت إليك كثيراً ولكنك لم تكن لي. الآن أنت لي. لا تقترب. أرجوك. إبق حيث أنت. أمانا ليلة بكاملها، وأريد أن أنظر إليك. لم أرك هكذا من قبل. جسدك لي. جلدك. أغمض عينيك. داعب جسدك. أرجوك. كانت مدام بلانش تقول وهرفيه جونكور يصغي.

لا تفتح عينيك أن استطعت، ومسّد نفسك، يداك جميلتان، كثيراً ما حلمت بهما، الآن أريد أن أراها، أريد أن أراها على جلدك، هكذا، أرجوك واصل فعل ذلك، لا تفتح عينيك. أنا هنا. لا أحد يستطيع أن يرانا وأنا قريبة جداً منك، مسّد، سيدي وحببي، مسّد قضيبك، أرجوك، بهدوء. توقفت. أكملني رجاءً، قال.

كم هو جميل أن يكون يدك على قضيبك. لا تتوقف. أحب أن أنظر إليه وأنظر إليك، يا سيدي وحببي، لا تفتح عينيك، ليس بعد، لا تخف. أنا بجانبك، هل تحس بي؟ أنا هنا، أستطيع أن أمسدك. هذا حرير، هل تشعر به؟ إنه حرير ثوبي. لا تفتح عينيك وستنال جلدي.

قالت. كانت تقرأ ببطء. بصوت امرأة - طفلة:

ستنال شفتي. عندما ألمسك لأول مرة سيكون ذلك بشفتي. لن تعرف أين. في لحظة ما ستشعر بدفء شفتي على جسمك. لن

تعرف أين إن لم تفتح عينيك. لا تفتحهما. ستشعر بشفتي دون أن تعرف أين.

كان يصغي دون حراك. من الجيب العلوي لسترتة الرمادية كان يبرز منديل أبيض.

قد يكون على عينيك. سأضغط فمي على رمشيك وجفنيك. ستشعر بالدفء يسري في رأسك. وشفتي على عينيك. فيهما. وقد تكونان على قضيبك. سأضغط شفتي هناك. وسأفرجهما قليلاً قليلاً وأنا أنزلهما إلى الأسفل.

قالت. رأسها منحني على الصفحات. إحدى يديها تمسد رقبتها ببطء.

سأدع قضيبك يفرج شفتي، ينغرز في فمي ويضغط على لساني. سيجري رضابي على جلدك حتى يصل إلى يدك. قبلتي ويدك. إحداهما داخل الأخرى، على قضيبك.

كان يصغي، عيناه مثبتتان على إطار صورة فضي فارغ معلق على الحائط.

وفي الأخير سأقبلك على القلب. لأنني أريدك. سأعض الجلد الذي ينتفض على قلبك. لأنني أريدك. وإذا يكون قلبك بين شفتي ستصبح ملكاً لي. حقاً. إذ يكون فمي في قلبك تصير لي. إلى الأبد. إن لم تصدقني افتح عينيك. سيدي وحببي. وأنظر إليّ. أنا هنا.

من يستطيع أن يحكي هذه اللحظة؟ وجسمي الآن من دون حرير،

يداك تلمسانه، عيناك تنظران إليه.  
قالت. كانت إتكأت نحو المصباح، وكان الضوء يسطع على الصفحات ومن خلال ثوبها الشفاف.  
أصابعك في فرجي، لسانك على شففتي. تنزلق تحتي، تأخذني من الكفلين وترفعني ثم تتركني أنزلق على قضيبك، ببطء. من يستطيع أن يمحي هذا؟ أنت فيّ، تتحرك ببطء، يداك على وجهي، أصابعك على فمي. اللذة في عينيّك، في صوتك. تتحرك ببطء ولكن إلى حد تؤلمني. لذتي. صوتي.  
كان يصغي. في لحظة محددة استدار لينظر إليها. رآها. أراد أن يشيح بنظره. لم يستطع.  
جسدي على جسديك. ظهرك يرفعني. ذراعاك لا تتركاني. الدفعات داخلي. عنف لذيذ. أرى عينيّك تفحصان عينيّ. إنهما تريدان أن تعرفا إلى أي حد ينبغي أن تؤلمني، إلى ما طاب لك ذلك. سيدي وحببي.  
ليست هناك نهاية. لن ينتهي الأمر. ألا ترى ذلك. لن يستطيع أحد أن يمحي هذه اللحظة. أبداً سترمي رأسك إلى الخلف، صارخاً. أبداً سأغلق عيني. وأنفص الدموع عن جفني. صوتي في صوتك. عنفك يحملني بثبات. ليس ثمة وقت للنجاة. وليست ثمة قوة للمقاومة. كان لا بد أن تأتي هذه اللحظة. وهذه هي اللحظة. صدقني. سيدي وحببي. هذه اللحظة ستبقى. من الآن ستبقى، حتى النهاية.

قالت ذلك بصوت رقيق ثم توقفت.  
لم تبق هناك إشارات أخرى على الصفحة التي كانت تحملها في يديها: الصفحة الأخيرة. ولكن حين طوتها لتضعها جانباً لاحظت سطوراً أخرى خلف الصفحة مسطرة بإتقان. حبر أسود وسط بياض الصفحة. رفعت عينيها إلى هرفيه جونكور. كانت عيناه مثبتتان عليها وأدركت أنهما أجمل عينيّن. خفضت عينيها مرة أخرى إلى الصفحة.  
لن نرى بعضنا بعضاً ثانية، يا سيدي.  
قالت.  
ما كان مقدراً لكلينا فعلناه. كما تعلم. صدقني: فعلناه للأبد. واصل حياتك بعيداً عنيّ. ولا تتردد لحظة واحدة، لأن في ذلك منفعة لك، أن تنسى هذه المرأة التي تقول الآن، دون ندم، وداعاً.  
للحظة ظلّت تنظر إلى الصفحة. ثم وضعتها على الصفحات الأخرى، بجانبها، على الطاولة المصنوعة من خشب خفيف اللون. لم يتحرك هرفيه جونكور. أدار رأسه فقط وأخفض عينيّه. وجد نفسه يحدّق بثبات في طيّات سرواله، الكاملة الأناقة، على رجليه اليمنى. من الفخذ إلى الركبة.  
نهضت مدام بلانش. أنحنت على المصباح وأطفأته. بقيت الغرفة مضاءة بالضوء الخفيف الآتي عبر النافذة من البهو. إقتربت من هرفيه جونكور. خلعت من إصبعها خاتماً من الزهور الزرقاء الصغيرة ووضعتة بالقرب منه. ثم عبرت الغرفة. فتحت

باباً صغيراً ملوناً كان مخفياً في الجدار وأختفت تاركة الباب  
موارياً خلفها.

لبث هرفيه جونكور وقتاً طويلاً في الضوء الغريب يبرم خاتماً  
من الزهور الزرقاء بين اصابعه. من البهو أتت نوبات بيانو  
متعب. كانت تبدد الوقت بحيث يصير من الصعب إدراكه.  
أخيراً نهض. اقترب من الطاولة المصنوعة من خشب خفيف  
اللون. جمع الصفحات السبع المصنوعة من ورق الرز. عبر الغرفة،  
مرّ من الباب الموارب دون أن يستدير وغادر.

٦٠

قضى هرفيه جونكور السنوات التالية ملتزماً بأسلوب عيش  
يليق برجل لا يحتاج إلى شيء. كان يقضي أيامه في نظام من  
العواطف المحسوبة بدقة. في لافي ديو أصبح مرة أخرى شخصاً  
محبوباً إذ رأى فيه الناس منهجاً دقيقاً للإنتساب إلى العالم.  
قالوا أنه كان على هذا النحو حتى حين كان صغيراً، قبل اليابان.  
اتخذ عادة أن يقوم برحلة صغيرة كل عام بصحبة زوجته هيلين.  
زارا نابولي، روما، مدريد، ميونيخ، ولندن. في أحد الأعوام  
وصلا إلى براغ حيث بدا كل شيء كالمسرح. كانا يسافران غير  
أبهين للمواعيد أو البرامج. كان يجدان الدهشة في كل شيء:  
حتى في سعادتهما السرية. حين كان نداء الصمت يتناهى إليهما  
يعودان إلى لافي ديو.

لو أن أحداً سأله يجيب هرفيه جونكور بأنهما سوف يواصلان  
العيش على هذا المنوال، للأبد. كان يحتفظ بذلك الصمت الثقيل  
الذي يحمله الرجال الراضون عن أنفسهم. أحياناً، في الأيام  
العاصفة، يعبر الحديقة حتى يصل إلى البحيرة ويتوقف على  
طرفها لساعات وهو يراقب الموجات على وجه الماء. كانت  
أشكال غير متوقعة تتوزع في كل الإتجاهات. كانت الريح واحداً  
على الدوام. ولكن كان يبدو كما لو أن ألف شخص ينفخون على

سطح الماء الذي يظهر كالمراة. في كل ناحية. مشاهد. خفيف وأخاذ.

أحياناً، في الأيام العاصفة، ينزل هرفيه جونكور إلى البحيرة ويقضي ساعات وهو يتأملها فقد لاح له أنه اكتشف، على وجه الماء، المشهد الغامض لحياته التي انصرفت، بكل خفتها.

٦١

في ١٦ حزيران ١٨٧١، خلف مقهى فردان، قبل الظهيرة بقليل، سدّد اللاعب المعاق كرة من أربعة أرقام، لسبب غير معلوم، وأحرز الهدف. استند بالدابيو إلى الطاولة لا يصدّق ما يجري. يد خلف ظهره. الأخرى تقبض على العصا. - تخيل هذا.

استقام. وضع عصاه وخرج دون أن يودع. بعد ثلاثة أيام غادر. أهدى مطحنتيه إلى هرفيه جونكور.

- لم يعد ثمة شيء يربطني بالحرير يا بالدابيو.

- بعهما، أيها الأحمق.

لم يستطيع أحد أن يعرف إلى أين ينوي أن يذهب، وما الذي سيفعله. تلفظ فقط بشيء عن القديسة أغنيس لم يفهمه أحد. صباح يوم رحيله قام هرفيه جونكور، مع هيلين، برفقته حتى محطة القطار في أفينيون. كل ما كان يحمله معه كان عبارة عن حقيبة واحدة فقط. وكان صعباً إدراك ما فيها. عندما رأى القطار ينتظر في المحطة وضع الحقيبة على الأرض.

- كنت أعرف رجلاً بنى محطة قطار لنفسه وحسب.

قال.

- وهل تعرف؟ بناها على شكل سهم، على طول مئات الأمتار من دون إنحناء. هناك سبب لذلك ولكنني لم أعد أتذكره.

بعد ثلاث سنوات، في شتاء ١٨٧٤، مرضت هيلين. أصابتها حمى دماغية لم يستطع أي طبيب أن يجد علاجاً لها. ماتت في بداية شهر آذار. كان يوماً مطراً. كل أهالي لافي ديو خرجوا لمرافقتها إلى مثواها الأخير: كانت امرأة طيبة المزاج ولم تسبب الكدر لأحد. على قبرها لم يتفوه هرفيه جونكور سوى بكلمة واحدة: - وا أسفاه.

شكر الجميع وكرر أنه ليس بحاجة إلى أي شيء ورجع إلى البيت.

لم يسبق أن ظهر البيت له كبيراً بهذا الشكل قط. لم يظهر له مصيره الشخصي غريباً بهذا الشكل قط.

كان اليأس شيئاً زائداً عنه. فكر في ما بقي من حياته وبدأ يهتم بذلك بعناد بستاني عائد إلى العمل في صباح اليوم التالي للعاصفة.

الأسباب تنسى. على أي حال، وداعاً. لم يكن في الواقع من طينة الذين يناقشون المسائل الجدية. والوداع مسألة جدية. رأوه يغادر. هو وحقييته. للأبد.

ثم قامت هيلين بفعل غريب. تحررت من هرفيه جونكور وركضت وراءه إلى أن وصلت إليه. أحتضنته بقوة. وإذ فعلت ذلك بكت.

لم يسبق أن بكت هيلين.

باع هرفيه جونكور المحطتين بثمن بخس لميشيل لاريو.

رجل بدين كان يلعب الدومينو مع بالداينو في مساء كل يوم سبت طوال عشرين سنة. كان يخسر دائماً، بعناد كبير. كان لديه ثلاث بنات. الإثنتان الأكبر سنّاً تدعيان فلورنس وسيلفى. والصغرى: آغنيس.

بعد موت هيلين بشهرين وأحد عشر يوماً وأثناء قيام هرفيه جونكور بزيارة المقبرة وجد، بجانب الورود التي كان يحملها كل أسبوع ليضعها على قبر زوجته، طوقاً صغيراً من الزهور الزرقاء والصغيرة. إنحنى لينظر إليها وبقي ساكناً لدهور: من بعيد لم يكن من الصعب لأي عابر سبيل أن يرى الأمر غريباً بل مضحكاً في الواقع.

بعد عودته إلى البيت لم يعد يخرج للعمل في الحديقة، كما كانت عادته، بل بقي في مكتبه يفكر. لم يفعل أي شيء آخر لأيام. يفكر وحسب.

في شارع ١٢ موسكات وجد دكان خياطة. أخبروه أن مدام بلانش كانت كفت عن السكن هناك منذ سنوات. أفلح في معرفة أنها أنتقلت إلى باريس حيث غدت خليلة شخص مهم، قد يكون رجلاً سياسياً.

ذهب هرفيه جونكور إلى باريس.

استغرق الأمر ستة أيام إلى أن إكتشف مكان إقامتها.

أرسل إليها يسأل عن موعد. أجابت بأنها ستنتظره في الساعة الرابعة من اليوم التالي. تسلق الدرجات إلى الطابق الثاني في دارة فخمة في بولفار الكابوتشين. فتحت خادمة الباب له. أخذته إلى غرفة الجلوس وطلبت إليه أن يقعد. وصلت مدام بلانش في ثوب فرنسي أنيق للغاية. كان شعرها ينزل على كتفها على الطراز الفرنسي.

لم تكن ترتدي في أصابعها خاتم الزهور الزرقاء الصغيرة. جلست قبالة هرفيه جونكور، دون كلمة. وانتظرت.

نظر في عينيها. ولكن مثلما يمكن لطفل أن يفعل.

- أنت كتبت تلك الرسالة، أليس كذلك؟

قال.

- هيلين طلبت منك أن تكتبها ففعلت.

لبثت مدام بلانش ساكنة دون حراك. لم تخفض عينيها.

لم يظهر أي طيف ابتسام على وجهها.

عاش هرفيه جونكور ثلاث وعشرين سنة أخرى. قضى أكثرها في صفاء بال وصحة جيدة. لم يغادر لافي ديو مرة أخرى، بل لم يترك منزله قط. كان يدير شؤونه بحكمة وهذا ماجعله في منأى عن الحاجة إلى إي عمل بإستثناء الإعتناء بحديقته. بعد فترة سمح لنفسه بالتمتع بمسرة كان منعها عن نفسه حتى ذلك الحين: أن يتحدث عن رحلاته للزوار الذين يترددون عليه. بإصغائهم إليه إكتشف أهالي لافي ديو العالم وتعلم الأطفال معنى العجائب. كان يروي الحكايات ببطء ويرى في الفضاء أشياء لا يراها الآخرون.

في أيام الأحد كان يذهب إلى القديس الكبير. مرة كل عام يقوم بجولة حول المطاحن ليلمس الحرير الجديد. حين تستولي العزلة عليه ينهض ويذهب إلى المقبرة ليتكلم إلى هيلين. بقبية وقته كانت مكرسة لعادات أبعدت عنه الحزن. أحياناً، في الأيام العاصفة، ينزل إلى البحيرة ويقضي ساعات وهو يتأملها إذ كان يلوح له، على وجه الماء، المنظر الغامض لحياته التي انصرفت بكل خفتها.

- لم أكن أنا التي كتبت الرسالة.

صمت.

- هيلين كتبت الرسالة.

صمت.

- عندما جاءت إليّ كانت كتبت الرسالة من قبل.

سألتني أن أحوّلها إلى اليابانية.

فعلت ذلك. هذه هي الحقيقة.

في تلك اللحظة أدرك هرفيه جونكور أنه سيسمع تلك الكلمات بقبية عمره. نهض. وبقي واقفاً. كما لو أنه نسي فجأة إلى أين سيمضي. تناهى إليه صوت مدام بلانش كأنه قادم من بعيد.

- أرادت أن تقرأها لي. الرسالة. كان صوتها أجمل صوت. وقرأت تلك الكلمات بعاطفة لم أستطيع أن أنساها أبداً. كانت كما لو أنها كلماتها حقاً.

كان هرفيه جونكور يعبر الغرفة، ببطء كبير.

- أتعرف، مسيو، أعتقد انها كانت ترغب، أكثر من اي شيء آخر في العالم، لو أنها كانت تلك المرأة. لا تستطيع أن تفهم. ولكنني سمعتها تقرأ الرسالة. أعرف.

وصل هرفيه جونكور إلى الباب. أبقى يده على المقبض.

دون أن يستدير قال بهدوء:

- وداعاً، مدام.

لم يلتقيا ثانية أبداً.

العنوان الأصلي للكتاب

## **Seta**

Alessandro Barrico

Milano, Rizzoli 1996

